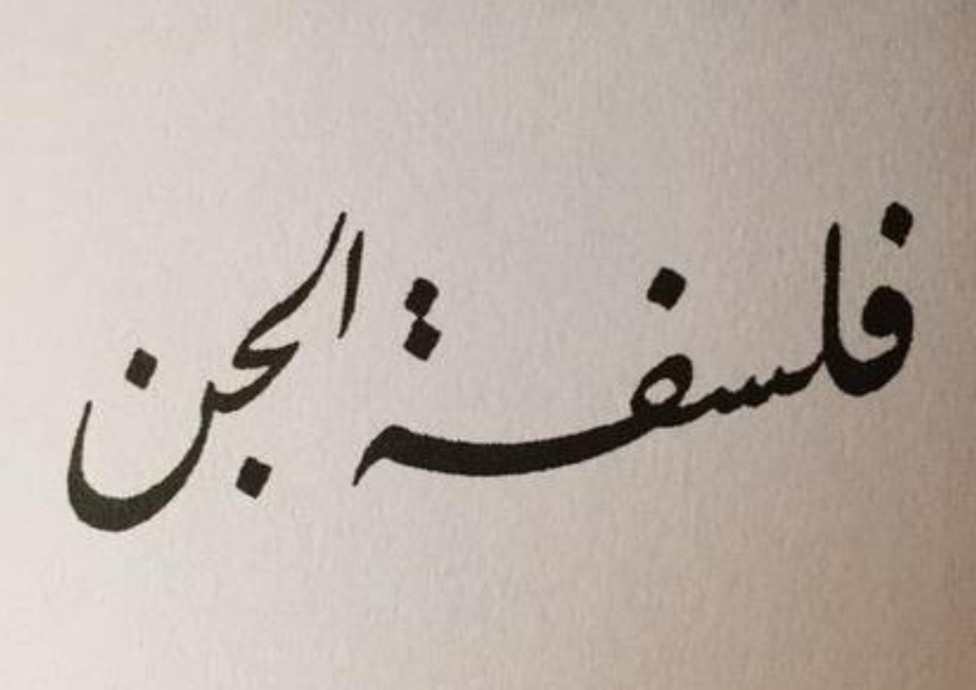

فلسفة الجن


أحمد السباعي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

(سبأ: 1-2).

فلسفة الجن

هديتي..

إلى.. (الكجا..!!)

ولستُ أجد أحق منك في هذه الفصول. فقد كنتَ إلى حد ما –في رأيي– تمثل صورة من ((فلسفة الجن)) في الحياة، وتعشق بعض مبادئهم فيها.!!

شهدتك مرة، وصبيان الشوارع يتجمعون حولك في زفة.. فأعجبني أن ضحكاتك كانت تعلو أصواتهم، وأن ضجتك كانت تطغى على زفتهم؛ فأكبرت فيك صمودك وثباتك لأوباش الحياة وأرذالها.

ورأيتك في أخرى وبعض المارة، والمتفرجين يعبثون بك، فأدهشني أن حركاتك البهلوانية كانت تنطق بأروع معاني الاستهانة بما يعنون، وأن نغماتك المرجعة في تساوقها المنظَّم كانت، رغم إعجامها، تصيب أهدافها من أوضاع الحياة بما لا تصيبه السهام المسدّدة.. فوددتُ لو أملك مثل هذه القدرة على تحدّي أوضاع الحياة.

وعشت بعد هذا لا تصادفني مناسبة (أتعجرف) فيها، أو أعني نفسي ببعض الشكليات المتكلّفة.. إلاَّ ذكرت (الكجا) في عبثه الساخر، وضحكاته المدوية.

ولا تثقلني أوصاب الحياة، وترهقني أحداثها الجامحة.. إلاَّ ذكرت (الكجا) في صموده لمآتي الأحداث وسموِّه على أوضارها.

وعشت لا أرى متكبراً يرهّك ويستكين تحت ضغط أوهامه الطائشة.. إلاَّ ذكرت (الكجا) في حركاته البهلوانية العابثة..

ولا أرى (متكلفاً) تعنيه بعض الأوضاع المقلوبة، أو مجنوناً ترهف أحاسيسه صروف الحياة.. إلاَّ ذكرت (الكجا) في أنغامه المرجَّعة لا يشغله إلاَّ أن يساوقها في ترتيل منظَّم، ويهزج بها في نشوة الطروب الساخر.

*** * ***

أخي.. (الكجا).

أتدري أنك فصل في كتاب الحياة، يستحق الدراسة؟!

وأن دراستك موضوع يهم المتعجرفين، والمتكبرين، والمجانين.. كما يهم المتكلفين، من أوضاع الحياة، ما يطيلون به عناءهم.

وأنك، في عبثك، واستخفافك تمثل صورة من أفكار عقلاء الجن.

وأنك لهذا كنتَ أحق من أهديه هذه الفصول من ((فلسفة الجن))!!..

بين يدي القارىء

ما زلتُ عند رأيي في أن لا أستفتح مؤلفاتي بكلمة يقدمني بها إلى القرّاء كاتب.. وإنه لحسبي أن أبدو فيما أكتب (كما خلقتني يا رب)، لا يوشيني زخرف؛ ولا تستهل موكبي زفة.

وإذا كان في إعلاني مثل هذا الرأي في تمهيدي (لفكرة) ما أحفظ على بعض النفوس، أو تركها تعتقد أنني أعني أشخاصاً، فبادرتني بما رأت أن تبادرني به، فهذا ما لا يعنيني بقدر ما يعنيني أن أصدع بالفكرة التي أراها.

ولا أريد –بعد هذا– أن أدّعي أنني أكتب لأُرضي جميع الأذواق؛ لأن إنساناً عاقلاً لا يكلّفني هذا، ولأنني أحرص شخصياً على ألاَّ أبدو فيما يصدر مني متكلفاً على غير طبيعتي.

ولقد عشت حياتي أقرأ لعشرات من الأدباء، فلم يصادف إلى اليوم منهم هوى في نفسي إلاَّ ما يمكن أن يُعد على أصابع اليد. فلماذا لا أفترض أن نصيبي من القرّاء لا يعدو هذه القاعدة؟ وأي دافع في الحياة يكلّفني أن أرضي كل إنسان.

سأدفع بهذا إلى المطبعة.. وسيقرأ الناس إعلانه في الصحف، وما من قارىء في هذا البلد المحدود إلاَّ ويعرف من شأني في الكتابة ما كوَّن به عني رأياً خاصاً في نفسه. فإذا سخَت نفسه بعد هذا للمكتبة بقيمته، ثم لم يعجبه ما كتبت، فليضرب بالكتاب رأسه، وليقل لنفسه إنها غلطتك، وإن السباعي اليوم هو السباعي أمس، وقبل الأمس وقبل الذي قبله.

* * *

وبعد:

ففي كتابي اليوم رسائل لعلها تنحو نحواً خاصاً في بعض فلسفتها في الحياة، ولعل عذرها في ذلك أنه كان يلابسها خيال اتخذ مجاله في آفاق غريبة من الكون، وأخذ سراه في فدافد لا يعيش فيها إلاَّ العفاريت والجن.

إنني تصورته صديقاً استهواه الجن فيمن يستهوون، فأسلس قياده عن رغبة.. وتكشفت له عوالم ما كانت لتتكشف له وهو في مثل أجرامنا، فاندفع في غمرة ما اكتشف، واندمج يعيش من تخيلهم فيها.. وراقني هذا الانتقال فتصوّرت الصديق حاذقاً يحيا بملكته النافذة في كونه الجديد، ويصادف من فلسفتهم في الحياة ما يحلو له أن يسجله في رسائل خاصة يبعث بها إلى صديقه في عالم الإنس، بعد أن يتولى بريده خادمه العفريت (طفوان) على النحو الذي سنرى.

ولا أريد أن أمهّد للقارىء أكثر من هذا، وبحسبه أن يمضي بين فصولها إذا شاء أن يمضي إلى الغاية التي اتَّخذتُها هدفاً فيما كتبت.

-1-

صديقي:

طابت حياتك. ها أنت تراني أبعث إليك برسالتي الأولى من وادي الجن الأصفر، خلف التلال الفاصلة بين قريتنا وما يلتوي وراءها من شعوب، وسوف لا يمنعني من الاستمرار في الرسائل إليك مانع ما استمر صديقي (طفوان) ناشطاً في قيامه بمهمة البريد بيني وبينك، وما دمت تكلّف نفسك في صباح كل يوم بتسلّم رسالتي من بيت الدجاج تحت النافذة الشرقية، وليس من شأني يمنعك من الكتابة إليّ كلما عنَّ لك ذلك، على أن تودع ما تكتب بيت الدجاج مغلفاً بدقيق الأرز. لأنهم هنا يكرهون رائحة الصمغ، وأن يكون معنوناً باسمي واسم جدتي لأمي.

وبعد: أفتحسبني خطفت. وأن الخطف تمَّ بالمعنى المحدود الذي يتبادر إلى الذهن؟؟.

الواقع أن شيئاً من هذا لم يحدث، وأن المسألة لم تزد عن استهواء يحذقه حِسان الجن. شعرتُ في بدايته أنني أميل إلى العزلة عن الإنس، والانفراد بأرواح ما كنت لأستطيع أن أكيّفها. وأن الحال لم يَدُمْ على ذلك طويلاً حتى رأيتني أتكشَّف هذه الأرواح غير المنظورة وأتبيَّنها، ويستهويني أن أترسَّم خطاها في مهاوي الوديان وبين أغوارها السحيقة.

ودرجت الأيام بي، أو درجتُ بها في مواطنهم. وأنا أهنأُ ما أكون بعشرتهم، والإقامة بينهم، وأحسبني سأطيل المكوث حتى تنزع نفسي إلى موطني الأول فأعود إلى بيتي على غير موعد مرتقب.

فاطمئن يا صديقي، وحاول أن تُطمئن والدتي، وأن تعلِّمها كيف تسخو بابنها للهناءة الروحية التي يتمتع بها؛ ولا تنسَ بأن تُقبِّل عني ما بين عينيها.

-2-

صديقي:

عشت..

أتذكر أننا في معرض المبالغة في التعبير عن غَضوب تهيَّجت أعصابه نقول: (إنه كان مهتاجاً كالعفريت، أو أننا حاولنا أن نمسك به فكان كالعفريت!!).

إنها أساليب في التعبير تعطي عن العفريت صورة من أهول الصور العاتية، الصاخبة. فهل أنت مصدّق إذا قلتُ إن الأمر في العفاريت هنا –أو في هذا الحي منهم– على العكس ما نتصوّره؟.

وإن في كثير منهم من الدماثة، ولين الجانب، وسعة الصدر، ما ليس في كثير من بني آدم على وجه الأرض!!

وإن في بعض العفاريت برود السكسوني، ورشاقة الفرنسي، واستقامة السويسري، وأدب الياباني، ممّا يدعو إلى دهشة كل أنسيّ لم تتسع تجاربه لهذا الثقل من المخلوقات.

يكتنف مسكني في قاع الوادي جماعة من العفاريت، أتمتع بينهم بهدوء قلَّما أتمتع به في حي من أحياء الإنس، وتطل شرفتي الخلفية على غرفة ضيقة يسكنها عفريت طويل القامة، نحيفها، في وجه أعجف، وأنف مسنون لا تكاد تشعر بوجوده لفرط هدوئه، ولا تكاد تسمع صوته رغم أنه محدِّث بارِع حلو الفكاهة.. أمّا محيّاه الأعجف –وهو مكان الغرابة– فلا تكاد تريم عنه الابتسامة العذبة. قلت له مرة: علمت أنك عانيت فيما عانيت من حياتك صعاباً قاسية. ويعجبني أنك برغم ذلك تحتفظ لسيماك بهذا الطابع الوضيء. فالتفت إليَّ في هدوء، وابتدرني في صوته الرخيم، وكلماته اللينة المقاطع، يقول: ليس في الحياة إلاَّ الظلال التي تلقيها أنت على نفسك.

هذه سعادة، وذلك شقاء.. هذا سار، وذلك مُسيء.. هذا جميل، وذلك رديء.. ألوان لا أصل لها في نفسك، وظلال لا يوشبها إلاَّ تلوينك..

قد تقول لنفسك لو جاءت الحياة بغير هذا لكنت سعيداً، ولو صادفني التوفيق بأحسن من ذلك لكنت أسعد. وليس في الأمر سعيد أو أسعد إلاّ كان مصدره نفسك، وأسلوب تلوينك.

يا صاحبي: إذا تعلّمت أن الحياة أرخص من أن يهولك فيها مكروه، وأنها أصغر من أن تأسف فيها على فائت، وأن أحداثها مهما تنوعت ألوانها لا تستحق منك العناية التي تُعنى نفسك بها، والتي تُطيل بها أمد اهتمامك، لخرجت وأنت أكبر من أن تنالك الأحداث، وأعظم من أن تلعب بلبِّك الأماني الغريرة.

ما ظنُّك بقوم أُرهف إحساسهم فكان كالوتر المشدود، تمسُّه النغمة بأخفت أصواتها فيمضي مضيها، ويعبث به اللَّحن النشاز فيئز أزيزه الناشز!

إلا شيئاً من ارتخاء العصب يحول دون إرهاقه، وقليلاً من الانحلال يُريحك من أوصاب لا نهاية لمداها.

يعجبني في عالمكم سكان المناطق الباردة لبرودهم، وفتور طباعهم.. ويغيظني في بني جلدتك ما يغلي في عروقهم من دماء!

قلت إنها من مآسينا.. أضاعت علينا دولة في الأرض ما كانت تستثني من خِراجها سحابة في السماء!!

-3-

..لا يا صديقي لستُ فيلسوفاً بالمعنى الذي تتخيّل، ولكني بدأت أتتلمذ لبعض المشايخ من فلاسفة الجن.. ويبرُّني بعطفه هنا كبير من حكمائهم تعجبك متانة آرائه وشدة أساره، وتحلو لك انتقاداته الصائبة يدعمها بالمنطق، ويبرهن عليها بالبراهين القوية الناطقة.

وزعيم الطائفة الجنّية هنا في جميع المهاوي والأغوار الداخلة ضمن حدوده يحترم هذا الشيخ العاتي، ويحترم كل زملائه من فلاسفة الجن، ويعطيهم من المدى الواسع ما لا يُعطى في دنياكم عند أرقى الأمم وأفضلها.

فهم هنا يعيشون لعقولهم أكثر ممّا يعيشون لأي لزوميات أخرى، وتجتمع حلقاتهم في مزدلفات الجبال الشاهقة وبين مغاورها في أطراف الليل والنهار.. يستمعون إلى أصحاب الحكمة، ويناقشون بين أيديهم كل ما يقع عليه نظرك نقاش الجبابرة لا يثنيهم إلاَّ المنطق.

قلتُ مرة لصديق لي من أصحاب الصدارة منهم: إنكم هنا تتوسعون أكثر ممّا يجب في الحفاوة بآراء طبقات لا أعتقد أن فيها من الأهلية ما تستحق به كل هذه الحفاوة.

فقال دون أن يستميحني العذر سلفاً كما نفعل عندنا: إنها فكرة الأرستقراطيين الذين لا يقدِّسون إلاَّ ذواتهم، ولا يحتفون إلاَّ بطبقاتهم.. ولقد علَّمتنا التجارب أننا قد نجد خير الآراء في أدنى الأوساط، فلا علينا أن نترك المجال واسعاً لكل من يقول، وأن نستعرض في منتدياتنا العامة كل الأفكار، ونترك لمَجالِي الحياة عملها في الفرز والانتخاب.. فأمّا الزبدُ فيذهب جفاءً، وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ.

-4-

صديقي:

سلمت.. أتحسب أن للقوم هنا مدارس لتثقيف النشء وتعليمه بالصورة التي ألفتموها في دنياكم؟

كنتُ تخيلت هذا وأنا أتحدّث إلى رفيق لي من حمّال الأخشاب.. فحملق في وجهي بالعين الواحدة التي يملكها في متوسط جبهته، وقال:

((فيم ابتُدِعت المدارس؟ إنها ولا ريب تلوي في دنياكم عن الأغراض التي من أجلها ابتُدِعت.

***أفي تعليم القراءة حكمة إلاَّ أن يُضيف المرء إلى تجاربه الخاصة وآرائه في الحياة تجارب وآراء يقرأها عن غيره ليعادِل بينهما ويُفاضل؟؟**

***وهل في الكتابة حكمة أكثر من أن يدوِّن المرء بها نتيجة تجاربه، ويعرضها في سوق النقد لكل القارئين؟**

***لا أفهم معنى للتعليم غير هذا؟ ولا أعرف غرضاً لأول شخص ابتدع القراءة والكتابة غير هذا الغرض. فهل تؤدي المدارس في دنياكم هذه الرسالة، وتبني صروحها لهذا الغرض السامي؟**

***أم إنها لوت إلى غير هذا الغرض، وشرعت تؤدي رسالتها في غير هذا الوجه؟ ثم قال:**

***إنني كجني اختلطت بأدراج الفصول في مئات المعاهد والمدارس، واندسست في (ياقات) ألوف المدرِّسين في أكبر دور التعليم.. فلم أجد التعليم يزيد عن مواد أُحكم تأليفها، وفُصّلت بنودها، وأُعدت في أساليب صالحة للشحن والتفريغ، فلا تكاد تبدأ مواعيد الدراسة في المدارس حتى تبدأ معها عمليات النقل من الرؤوس إلى الرؤوس، ومن الكتب إلى الكرّاسات. في أوضاع لا يحسها العقل أو يشارك فيها.. فأين هذا من أغراض التعليم الأساسية؟؟**

***كل معلومات الحياة لا تعدو حالين، هما:**

تقرأ لتفهم آراء غيرك، وتجد الفرصة لمناقشتها.. وتكتب لتعطي غيرك فرصة لفهم آرائك، وتبيح له مناقشتها.

***ما يمنعكم أن تهدموا مدارسكم على أنقاضها، وتقضوا بجرَّة قلم على كل النظم المتَّبعة فيها، وتبنوا على تلال هذه الأنقاض مدارس أخرى قوامها سبورة وأقلام من الطباشير وأساتذة، يناقشون أكثر ممّا يعلِّمون، ويمرِّنون طلابهم على الاستنتاج أكثر ممّا يلزمونهم بواجب أو فرض)).**

-5-

صديقي:

لك الخير..

طمئن أمي ما استطعت، وأكِّد لها أنني سأتراءى لها في فترات ما قبيل الغسق في صورة صادقة من واقعي لا أحتال فيها ولا أكذب.

وقد كنتُ حدّثتك أن كبيراً من حكماء الجن متين الأفكار، صائب النقد قويِّه، يبرُّني بعطفه. ودعني أسرُّ إليك اليوم أني آليتُ على نفسي التزام مجالسه، والاستفادة من فلسفته، وأني سوف لا أضنُّ عليك بمنتخبات أختارها لك الفينة بعد الأخرى، وأضمنها رسائلي إليك.

-6-

صديقي:

هل أنت مشتاق؟

إنني لا أقلُّ اشتياقاً عنك، ولكنه يُغريني بهذه الطائفة من الجن هذا الغذاء العقلي الذي أتمتع به.

كنا مجتمعين البارحة على حافة غدير وراء الأكمة القصوى، نحيط بأستاذنا الكبير عندما هبط علينا مارد يدعونه (شقادف)، وما أن سلّم حتى ابتدر يحدثنا عن مشاهداته في بقعة قصية من الأرض كانت مخضبة بدماء المتقاتلين؛ مفروشة بجثث القتلى من الفريقين.

واعتدل الأستاذ في جلسته وهو يقول: ما ظنكم بهذه الظاهرة التي يدعونها (الحرب)، والتي يكتوي بنارها في كل مناسبة ملايين فوق الأرض أو تحتها. كان للحرب معناها يوم كانت البربرية تعبث بهمجيتها، وتحتكم في كل مناسبة إلى غرائزها الوحشية، أما وقد تشذَّبت هذه الغرائز بمرور آلاف السنين، وحل محل البربرية عقول تغذَّت بمعارف قرون، وأخلاق هذبتها ما لا يُعد من تجارب الحياة، فلست أعرف معنىً لبقاء هذه الظاهرة على وجه الأرض أو تحتها.

أفهم أن حب الذات غريزة متأصلة في الثّقليْن من هذا العالم، وأن الخلق جُبل أول ما جُبل على الطمع وحب الاستئثار. ولكني أفهم إلى جانب هذا أن رسل الديانات السماوية، وعلماء الأخلاق، والمهذِّبين، ظلوا مئات الأجيال يعالجون شأفة هذه الجبلات، ويحاولون تهذيبها بمختلف الوسائل وشتى أنواع العلاج. فهل كانت جميع هذه الجهود أضعف من أن تستأصل جذور الشر، وأهون من أن تترك أثراً ولو ضئيلاً فيها؟

أكبر ظني أن المحاولات عادت إلى الحياة برد الفعل العكسي، وأن البربرية التي عرفتها المعمورة، أول ما عرفت الحياة، لم يزل يتفاقم أمرها ويستشري خطبها، وكأن الحياة بأحداثها، والأحداث بتجاربها، فتّقت العقول على ألوان من الإثم يتفاقم كلّما مضت السنون، وتمعن

في الطغيان كلّما أمعن الزمان في دواليبه.. وإن نُذُر السماء، ودعاة الأرض، لم يفعلوا أكثر من أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام التيار الجارف.

أجل. فقد كانت أطماع البربرية تمثلها أدوات من الحجر وآلات من الحديد تفتك بمئات الأرواح في سبيل استئثارها.

أما اليوم، وبعد أن أدى العقل رسالته كاملة في الحياة، وترك آثاره في الأرض تمثلها أمم متمدنة بالغة من التهذيب غايته، ومن السمو الأخلاقي نهايته، تأبى العقول إلاَّ أن تتفتق بما يغذي غرائز الوحشية، وتحتال للطغيان بما يهدد الأرواح، لا بالنسبة المئوية والألفية كما كان المتوحشون فيما سلف من عهودهم، ولكن بملايين الأرواح وباستئصال المدنية من قواعدها في كرَّة طرْف.

قد أفهم أن أطماع السادة وحبهم ذواتهم يستعصيان على قواعد التهذيب، ويأبيان أن ينتميا إلى العقول، ولكني لا أفهم أي معنى لانقياد الشعوب لهم في عصور نضج فيها التفكير الحر، وتساوى المسود والسيد في مجالس الدولة، ومقاعد الحكم، وقاعات الشورى.

أنت تسمع أن دولة من دول الأرض تستطيع إذا ما لزمها الأمر أن تجنِّد عدداً من الملايين، وأن تفعل غيرها مثل ما تفعل، فتستقرىء الخبر استقراء المدقِّق الباحث، لتعرف ما إذا كان هذا التجنيد عن طواعية واختيار، فتتهم منطق هذه الملايين، وتتهم غايتهم من التهذيب والثقافة. أم أنهم مسوقون إليها سَوْق النعاج لا يملكون من تصريفهم شيئاً، فتتهم الدعاوى الزائفة في حرية الفرد، وتتهم الدساتير الكاذبة فيما أعطته للشعوب من حقوق جعلتها في حصانة من عصا الراعي واستبداده بشأنها.

إنني، على أي الاحتمالين، أتمثل الجندي مدججاً بالسلاح، يحمل غدارته وبندقيته، وما لا أعرف من أدوات فتكه، فأتمثل قناصاً من فدائيي العصور المظلمة في إحدى رحلاته الفدائية في مجاهل الأرض. وإنه ليحتمل في صدري عشرات الأسئلة، أود لو أملك مواجهته بها.

أيُّها الجندي العاتي!!

فيم كل أدوات الفتك هذه؟

وإلى أي وجهة تنوي المضي؟

أتدري وأنت تحزم أمرك، في نشوة العربيد، أنك على خطوات من وادي الحصيد، حيث تفرغ رصاصك في أفئدة رطبة، وتضع قذائفك في بيوت عامرة بأطفالها، آهلة بالبريئين من أهلها؟

إن كنت لا تدري فما أهونك في الحياة، وما أشبهك بالسوائم تعيش مسخرة.

وإن كنت تدري فما أغلظك وأقساك. وأشبه عتوك بأول متوحش عاث في الأرض.. لا يردعه رادع من مروءة، ولا تزعه أخلاق هذبها العقل وصقلتها الأيام.

أشنآن خاص دفعك إلى هذا العتو، أم عداء مستحكم استفزتك إليه أعصابك الحادة؟

إنك يا صاحبي تتبجج بعهود النور التي تعيش فيها، وإنك تنتمي إلى عصر نضج فيه العقل البشري واستكمل استواءه، فهل كنت تلغي عقلك في الساعات التي يدعو فيها داعي الحرب، وتسمح لروح العتاة من المتوحشين أن تتقمصك؟؟

لا تلوِ.. وكن جريئاً، كما كنت وحشاً. وإذا كنت مدفوعاً بما زيَّنه لك قادتك وأصحاب أمرك، فأخوف ما أخافه عليك أن يمتطوك إلى غاياتهم، كما يمتطون الدواب إلى شؤونهم، وليسوا بمقاسميك شيئاً من مجدهم. أو مغانمهم إلاَّ الفتات الذي تناله الهرة من موائد أسيادها.

أيُّها الجبار.. إن كنت (بيادة) فاحص نصيبك من حبات الرصاص لتحدس عدد الأرواح التي تُيتم أطفالها، وتؤيم نساءها، وتورثهم الفاقة والويل.

وإن كنت ((مدفعياً)) فوفر على نفسك عناء الإحصاء، لأن قذائفك أكبر هولاً من أن تحصى، وآثار تخريبك وتدميرك أعظم من أن يناله الحدس والتخمين. وأرجو بعد أن ينالك الظفر ألاَّ تطمع في غير ألقاب الوحوش!!

كن أعقل من أن تستثيرك العداوات المفروضة، واحتكم إلى تهذيبك أكثر من أن تحتكم لشهوتك وأعصابك.

وإذا كنت تزهو بنفسك كإنسان فترفّع عن ظواهر خليقة بالوحوش في آبادها.

كن مهذباً ما استطعت، وألغِ فكرة الحرب من حياتك تُدلِل على سموك الإنساني، وأخلاقك الرفيعة.

-7-

صديقي:

لك الهناء.

سرَّني أنك تلوت رسالتي على أمي، وأنك استطعت أن تقنعها باطمئناني إلى الحال الذي أعيش فيها بين أصدقائي من الجن. والواقع أن أمي كفكرة شيء له قيمته المحترمة، إذا استطعت أن تُخرج من حسابك ميوعتها المفرطة، أو إفراطها المائع.

وليس في مآسينا كالإفراط.. فنحن نفرط إذا أحببنا، ونفرط إن خاصمنا.. وكما نفرط إذا اعتزمنا المضي في شيء، ونفرط بالمثل إذا لوينا عنه؛ ونسدر في نومنا.

مضى تاريخنا ونحن مفرطون في الكرم، مفرطون في الشجاعة، مفرطون في الحب، كما نحن مفرطون في الحمق والعربدة والبغض، فلم تورثنا نوازع الإفراط إلاَّ تركة مثقلة بالديون. محمَّلة بأسوأ ما يتحمله المغبون من تركة أبيه!

ألا تحسبني أخجل من قراءة سفاهتنا في الكرم، وميوعتنا في الخمريات والحب، وتهورنا في المُثل التي يضربها المؤرخون عن براعتنا في التلفيق والتزييف؟

اقرأ مدائحنا في بلاطات الخلفاء، ومراثينا فيمن كان يستحق الرثاء أو لا يستحق، وأخبارنا في أيام النعم والترف، وقصصنا في أيام الشدة والبكاء، وتصفَّح ما سوّده المؤلِّفون ليقدموه إلينا كتاريخ.. ترى الإفراط ناطقاً فيمن دعونا لهم أو تحاملنا عليهم، وتجد أننا أمة عاش المبرزون فيها ما عاشوا على حساب أعصابهم أكثر ممّا عاشوا لأفكارهم المتزنة وعقولهم الراجحة، وأنهم أورثونا هذه السيئة البالغة، الناطقة بإفراطنا في كل مآتينا!!

فلا تعجب بعد هذا إن رأيت أمي تفرط في حبها، وتفرط في تدليل صغارها، كما تفرط في حنوها على أولادها الكبار، فقد ورثت الإفراط من أجيال ممعنة في القدم.

أيأتي اليوم الذي تعرف الأمم فيه أن الوالدات من الطير والحيوان أقرب إلى الفطرة السليمة منها؟ فهن يقصرن حدسهن على الفترات الأولى من سني حياة صغارهن، حتى إذا بلغت

مبالغ الاستقلال بأنفسها أبَيْن عليها التبعية وألزمتها الاستقلال الذاتي إلزاماً، وتركتها تعتمد على مقدرتها الخاصة اعتماداً تنقطع فيه كل العلاقات السابقة بهن.

إن أمهاتنا سوف لا يعرفن هذا حتى تعرف قبلهن أن داء الأمة الدوي إفراطها في جميع مآتيها، وأنه داء تغلغل في ملكاتنا الخفية، وجرى في شراييننا من ألف سنة مجرى الدماء منها!

-8-

أخي:

سلمت وسعدت.

أيهولك أن تتصل أسبابي بأسباب فتاة جنّية، وأن تسكن إليها نفسي سكون الأليف إلى خِلّه الودود!!

إنها أظرف ممّا يتصوره خيالك الترابي، وإن في عينيها الواسعتين، وأنفها القاني، وشفتيها الرقيقتين فتنة لا تكاد تصافحك في واحدة من المليون من بنات الإنس!!

أترى أنه الإفراط تأبى عدواه إلاَّ أن تنالني رغم ما أنكرته منه في رسالتي السالفة؟

لا تستبعد فلست إلاَّ من غزية وقد غوت فغويت.. ودعني أنتهِ بك إلى ما انتهى إليه شأني!

شهدتها مقبلة على ندوتنا تتخطر في مشية القطا، وتنثني في أعطافها كما تنثني الأغصان المائسة على شطآن الوادي.. وما أخذتها عيناي حتى شعرت باختلاجة تواثَب لها قلبي، وتهادت في خطر المتهافت حتى اختلطت بالجالسين في حلقة الأستاذ، وافتر ثغرها عن بسمة حلوة تحيي بها من يليها من الجالسين.. فكانت إيذاناً لها بالتوسعة في الصف الذي يقابلني من المجلس.

وأشرق عليّ من محيّاها جبين ناصع، وتهدلت على حاشيته خصلة رقيقة من الشعر في لون الذهب، ولامست أطرافها أهداباً ذابلة فتكسرت تكسر الواله، ومرت بأنامها على حاشية جبينها، وشرعت تقيم بأطرافها ما تهدل على الأهداب، فتفتحت أجفانها عن مثل أحقاق الزهر.. فرأيتني في إغفاءة أشبه ما تكون بإغفاءة المأخوذ انتهيت بعدها على حفيف أثوابها وهي تتهادى في خطواتها مع المنصرفين من حلقة الأستاذ.

-9-

أخي:

طابت حياتك.

تلقيت خطابك من مكانه في حظيرة الدجاج، وآنسني عتابك الودّي فيما سمّيته نكسة القلب المريض.

والواقع أن مثلي، وقد أبل من أوجاعه في القلب، قمين بأن يقي نفسه مرامي الأهداب؛ والأعين الجميلة، وأن يتقي ما أمكنه مظان الهوى.. ولكني أحسبني، وقد أبليت في مهاوي الفتنة ما أبليت ستجدني أرسخ من أن تجمح به عاصفة من عاديات الجمال.. مهما بلغت شكيمتها، واشتد جماحها.

ولعل هوى الجن هنا لا يبعد كثيراً عن رأيي في عقيدة الحب، وعسى أن يكون أسلوبهم أشبه بالأساليب التي عشتُ أتخيّلها فيما يجب أن يكون عليه المغرمون؛ فدعني أتلذذ بتجربة تصادف من هوى نفسي ما يصادفه المغرم بمبدئه الذي يعتنق.

لم أسدر في غفوتي إلاَّ ريثما يمضي أثر الدهشة الأولى.. وما أن أزف موعد الدرس من ليلتنا الأخرى و (لحظتها) تتهادى بين أثلات نائية في طريقها إلينا، حتى كنت أخف منها لملاقاتها على نجوة من المتجمهرين في انتظار المدرس..؛ ورأيتني أبتدرها في طلاقة.

أتأذنين في كلمة مختصرة؟

فشاعت في وجهها بسمة هادئة، والتفتت تنثني على عطفيها في رقة المنصت المستجيب.

قلت: وننتحي جانب هذه الأثلة إذا كنت توافقين.

فجمعت غديرة من شعرها كانت مرسلة على كتفها وشرعت تمشطها بأطراف أناملها، وتتقدم مني إلى حيث أشرت.

قلت: ولا يضير هذا القوام اللدن أن يستريح إلى هذه الرمال الناعمة.

قالت، وقد بدت نواجذها عن بسمة مشرقة: ولكن فيمَ كل هذا والدرس على أهبة الافتتاح؟

–دعينا نبدأ مثل درسه، وعسى أن يكون أحفى منه بلغة الحياة وأحفل بها.

–أمدرِّس يستفتح بأول تلميذة يصادفها؟

–بل تلميذ يناقش أول معلّمة يستعذب روحها.

–لعله فصل من رواية لم تؤلّف بعد؟

–بل هو رواية مختزلة في فصل واحد..

–ما اسمك لو تسمحين؟

–هبوب.

–ما السحر الذي يلمع ذوبه بين عينيك؟؟

–يكفي أن تعلم أنه))سحر ((لتعرف أنه خداع النظرة الخاطفة واللمحة العابرة.

–وإذا أثبت الاستقراء أنه حقيقة لا خداع فيها فهل لديك ما تفسرين به فتنته؟

–وإذا ثبت أنه سحر فهل لديك ما يعوذك من خداعه الفاتن؟. وهل تحفظ شيئاً ممّا يتمتم به أشياخكم من الإنس ضد عاديات السحر؟!!

–أَوَتعرفين أنني من الإنس؟

–وأعرف أنك لم تخلص بعد من أوشاب الإنس.. غدرهم ومينهم وسعة احتيالهم.

–أرى أنك تتحاملين في تعسف.. وإلا فأينك من تطفل الجن على حياة الآدميين، وفرضهم أنفسهم عليهم؟.. يتجلّى ذلك في المسلوبين منا، والمعتوهين، والمأخوذين، والممرورين، والمرضى، بعللهم وشتى أنواع أذاهم!!

–تلك أرواح شريرة نمقت ظلمها، ونزدري عدوانها، ونساعد عليها كل من يحتمي منها.

ليس على وجه الأرض من يمقت الظلم إلاَّ لفائدة يجنيها ممّا يمقت، أو يحارب العدوان إلاَّ لمصلحة ينالها لنفسه ممّا يحارب..

وليس على وجه الأرض بينكم عادل إلاَّ أن لا يحول العدل دون جشعه، ولا يحد من أطماعه، وليس بينكم مخلص إلاَّ أن يخلص لهواه وغايته قبل أن يفكر في غيره.

–لعلّها مساوىء الثقلين؟

–لعله يبدو لك هكذا.

–إنها فلسفة في غير موضوع.

–ذلك لأن الموضوعِ في نظرك سحر عينيّ الجميلتين وفتنة أهدابي.

–قالت هذا وهي تزوي ما بين عينيها، وتستجمع أطراف ثوبها استعداداً للانصراف.

قلت: وهل لموضوعنا من بحث؟

قالت: بلى.. وستكون له بحوث تتوالى كلّما جمعتنا الفرصة، وواتتنا الظروف.. وإلى الملتقى..

ومدت يدها لتصافحني، فأحسست بطراوة الحِسِّ ونعومة الحرير.. وسلمت.

-10-

صديقي:

عشت سعيداً.

أشاقك في رسالة أمس أن الجن يمقتون أخلاقنا، ويعيبون علينا هذه الأنانية التي شوَّهت كل معاملاتنا في الحياة؟ وصبغتها بالألوان القاتمة السوداء؟

لسنا الآن بسبيل مناقشة الجن، أو طائفة منهم، عن مدى الفرق بين حقائقنا وحقائقهم.. فنحن لا يجب أن نكون معنيين إلاَّ بأنفسنا؛ ودراسة حقائقنا في ضوء الوقائع والمشاهدات!

أكبر ظني أن النزاهة بمعناها الصحيح أهم ما ينقص العنصر الإنساني.

وإذا استثنيت الأنبياء وأفراداً قلائل درجوا في مداجهم ظهر لك أن الأديان تعاقبت على إصلاح الناحية الخلقية في الإنسان، فأبى الإنسان إلاَّ أن يكون عنيداً عند أنانيته، منافقاً في سبيل رغائبه، يحتال لها بشتى أصناف الحيل، ويراوغ من أجلها ما وسعته الحيل؛ وأسعفته المراوغة والنفاق!

وتجد بعد هذا أو قبله مأساة المآسي في قصص المصلحين –فقد أدرج التاريخ صنوفاً أساءوا إلى الإنسانية أكثر ممّا أحسنوا، وحسبك تراجم الألوف ممن ثاروا على الجور والطغيان وندَّدوا بأعمال العسف والظلم. حتى إذا استجاب الناس لصرخاتهم، وثاروا لثورتهم. تكشفت حقائقهم عن ألوان أبعد ما تكون عن النزاهة والبراءة والإخلاص. وعدت ترى الجشع والأنانية، وعبادة الذات تحل محل البراءة الكاذبة، والاستنكار المزيف، والدعوات المضللة؛ ويطالعك إلى جانب هذا في تاريخ الإنسانية أبطال برزوا في ميادين العدل وحب النصفة.

لكنك لا تلبث أن تناقش عدلهم حتى يتراءى لك الزيف في الكثير ممّا برزوا فيه، ويتجلّى لك العدل لا يلوي على براءة مطلقة، إنه عدل لا يمضي في صراطه السوي إلاَّ إذا خلص من منافعهم الخاصة، ونصفة لا تستقيم حقيقتها إلاَّ إذا برئت من فوائدهم، أما إذا اعترض عدلهم عارض من ذواتهم فإن لمنافعهم المقام الأول من عنايتهم.. في سبيلها يتعسفون،

وحسابها يُسوِّفون ثم لا يبالون أن يتبنّوا كل ما يدعون إليه من دساتير، ويتأوّلوا في تفسير كل ما وضعوا من مبادىء.

((والعدل في الأرض ويبكي الجن لو سمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا))[1]

وتجيء التربية في أعقاب كل هذه المحاولات فتدعو إلى صقل النفوس، ويتبجح أصحابها بقدرتهم على تهذيبها، ويدَّعي روّادها في أصقاع الأرض أن لتأثيرها مفعول السحر في تنشئة الإنسان الفاضل، ورياضته على أعمال الخير حتى إذا امتحنت الأحداث هذه الدعاوى، واختبرتها على محك الأيام ظهر مبلغ ما غشِيهَا من زيف براق، وبدا الإنسان من ورائها هو الإنسان، بكذبه وأنانيته المتطرفة.

وجاءت الوقائع بجميع المتعلمين، والمهذبين والمصقولين، والمثقفين بأعلى الثقافات وأسماها، فإذا هم لا تقل حقائقهم عن جبلة أول أناني عاش في الأرض، ولا يختلف طابعهم عن أول أفّاك عاش في أرباضها..

قُتِلَ الإنسان ما أكفره!!

([1]) – قلت (الجامع لمقالات السباعي) : وهو من شعر جبران خليل جبران ، من قصيدة يقول فيها :

وَالعَدل في الأَرض يُبكي الجِنّ لَو سَمِعوا ... بِهِ وَيستَضحكُ الأَموات لَو نَظَروا
فَالسّجنُ وَالمَوتُ لِلجانيـنَ إِن صَغرُوا ... وَالمَجدُ وَالفَخر وَالإِثراء إِن كبرُوا
فَسارق الزَّهـرِ مَذمـومٌ وَمُحتَـقَـرٌ ... وَسارِقُ الحَقل يُدعى الباسِلُ الخطرُ
وَقاتـلُ الجسـمِ مَقـتولٌ بِفـعـلَتِـهِ ... وَقاتـلُ الرُّوحِ لا تَدري بِهِ البَشَـرُ

-11-

صديقي:

أرجو لك الخير.

تركتك من أيام وأنت تشهد الحبيبة تضع يدها في يدي لتقول لي: إلى الملتقى.. ولتعدني ببحوث تتوالى كلّما جمعتنا الفرصة وواتتنا الظروف.

فدعني اليوم أفضُّ إليك بعض ما انتهى إليه أمري في شأنها.. فقد مضت الأيام الثلاثة الأولى وأنا لا أعثر لها على أثر.. وناجيت الجبال، والأثلة الكبيرة التي ضمني المجلس بها تحت أغصانها، فلم يسمعني مجيب، ولم يهدني إلى أخبارها هادٍ.

ومضيت البارحة أجوس خلال الأثلات على كثب من مجتمعنا للدرس فرأيتني أناجي خيالها:

هنا كانت تتهادى في قضيبها الممشوق.. وبين يدي هذه الصخرة العظيمة وقفت تتثنى على عطفيها، من هنا خطت تتقدمني إلى حيث أشرت، وخصلة من شعرها الذهبي تتهدَّل على كتفها، فتجمعها بأطراف أناملها لتصلح من وضعها بين الغدائر المرسلة على عنقها الوضيء.

على هذا الرمل الناعم استراح قوامها اللدن، وفي هذه البقعة كان مجلسي منها.. هنا اتكأت.. وعلى هذه الحرملة استندت، وصوتها الرخيم يملأ الجو بأنغام كأنها ألحان قيثارة، ولهاثها يعطر الأرض والسماء حولنا بمثل شذى زهور الربيع.

أيتها الحرملة على حاشية الرمال..

وأيتها الرمال على حدود الأثلات..

وأيتها الأثلات على حوافي الوادي، ويا أيُّها الوادي بحزنه وسهله، بصخوره وروابيه.. أستودعكم الله أسرار حبي، وأستشهدكم على مبلغ ما لوّعني فراقها، ومناني بعادها.

* * *

يا للويل!! أتراني يا صديقي صبأت واستأنفت أيام الجهل، وعاودتني أشجان القلب المبتل؟ اللهم إنها نكسة لا ترضيك!

-12-

صديقي:

لك العز.

ما عرفتني قط –حتى في أيام غفلتي وصباي– كالمجنون أهيم في صبوتي هيام المفتون، لا يملكني ضابط من عقل، ولا يحد من غفلتي سلطان.

دعني أقل لك: ما علاقتي بفتاة لعلها لا تشعر بوجودي، وإن شعرت فليس هناك ما يعنيها بأمري، أو يحملها على التفكير في شأني؟

يقولون الحب.. وأنا لا أريد أن أفهم إلاَّ أنه استجابة تتبادل فيها العواطف أحاسيس متكافئة، وإلاَّ فهو الويل، مصبوغاً بألوان برّاقة، وهو الجنون مطوياً تحت أسماء شعرية فتانة.

طمئن أمي أني لا أزال فتاها المعتد برباطة جأشه، وأني في سبيل المعرفة والاطِّلاع سأطمئن نفسي على البقاء في منفاي المختار بين الجن مدة أطول ممّا بقيت إلى اليوم، وسأكتب إليك في أيامي التالية أهم ما يصادفني في دنيا الجن وحياتهم العقلية.

-13-

صديقي:

عشت.

كان حديث ندوتنا اليوم فكرة طالما بحثناها معاً. ولم ننتهِ فيها إلى نهاية مقنعة.

أفي الحياة وجود لما نطلق عليه اسم الحظ؟؟

وهل لتأثيره من القوة ما يمكن أن نفسر به بعض الأحداث في الحياة؟؟

وهل فيه غِنية عن العمل بشتى وسائل السعي.. أم هو خرافة لا أصل لها إلاَّ في الأساطير؟

هذه أسئلة كانت أمس مدار بحث مستفيض في ندوة الجن، وإليك أهم ما دار فيها:

بدأ الأستاذ حديثه عن الكون، وما اكتشف إلى اليوم من قواعده ونظمه. ثم قال: إنه بالنسبة إلى القليل الذي اكتشف من قواعده لا زال أمامنا آماد وآماد أوسع من أن ننتهي فيها إلى نهاية، وأبعد من أن يحل ألغازها عقل.

قد تراني أكبر شخصية بارزة إكباراً يجل عن الوصف، فتعمد إلى امتحاني في تفسير الأسباب المعقولة لهذا الإكبار، فلا أجد ما يكلفني إقناعك لأني سأجد في بعض خلاله المبرزة من سماحة أو كرم أو إباء ما يعترف بإكباره قواعد الكون ونظمه، فلا تلبث أن تطمئن إلى عقيدتي في هذا الإكبار؛ ولا تجد وجهاً للاعتراض عليها. وقد أمقت شخصية أخرى، وأحتقرها، وتناقشني في أسباب هذا المقت، فأكشف لك عن خلال فيه تقر قواعد الكون مقتها وحقارتها، فلا تلبث أن تسلم معي فيما ذهبت؛ وتقر معي ما أقرت قواعد الكون.

ولكنك ستقابلني في ناحية أخرى من مناحي الحياة حيث تجدني أدين لأشخاص بهيبة لا يستحقونها مني، وأعنو (بهامتي) إجلالاً لهم.. وقد يجمعني بهم نقاش فأشعر بصغاري بالنسبة إليهم في أعماق نفسي، وأجدني أحاول الكلمات فلا تسعفني، وأتصيَّد المعاني فتفلت مني.. إنهم أشخاص مهيبو الطلعة لا أكثر، وإن في طالعهم من السؤدد ما تعنو له جباه غيرهم في صور لا تملك تفسيرها، ولا تجد في قواعد الكون ما ينظمها انتظاماً صحيحاً.

وإلى جانب هؤلاء أشخاص آخرون أستثقل ظلهم، ولا يغصني شيء ما تغصني مصافحة وجوههم، ولا يُكدرني هم ما يكدرني لقاؤهم. وتناقشني في هذا فأغدو أعلِّل لك من خلالهم ما أحاول أن أفسر به شعوري، ولكنك تأبى أن تقتنع بما أعلِّل لأن في خلال الألوف ممّن استثقل ظلهم ما يُعادل سيئات ثقلائي أضعافاً، وأنا مع هذا لا أغص بهم غصتي بثقلائي، ولا يُكربني منهم يكربني من أولئك.. إنها صور لا تملك تفسيرها؛ ولا تجد في قواعد الكون ما ينظمها انتظاماً صحيحاً.

ننتهي من هذا إلى أن الكون أوسع من أن تنتظمه قواعد، وأن وراء الأمد الذي استطاع العلم أن يعالجه آماداً وآماداً أبعد من أن يتطرق إليها العقل، وأعصى من أن يحل أحاجيها تفسير.

فإذا صادفنا في مثل الحالات السالفة علماء نفسيون يأبون إلاَّ أن يعلِّلوا شعورك بالصغار أمام من تهابه، واستثقالك ظل من استثقلت بأشخاص مشابهين، مضى عليك من حوادثهم ما طوته الذاكرة، وبقيت آثاره مطبوعة في قرارة عقلك الباطن فلا تستنكف من مضاربتهم العلمية، ولا تستبعدهم من حسابك لأننا سنرى أنهم إذا نجحوا مرات فلا بد أنهم مخفقون في أكثر منها. فليست علومهم إلاَّ محاولات في آماد أوسع من أن تنتظمها قواعد أو تحدها علوم.. وما العقل الباطن، وما انطباعه بآثار حوادث منسية إلاَّ فروض لقواعد قد يجوز تنظيمها في حيِّز محدود، وقد لا يجوز بالنسبة إلى اتساع الكون على النظم والقواعد.

ويصادفك إلى جانب هؤلاء فلاسفة قد يكون للنادر منهم ملكاته في تفسير شواذ الكون، فلا تضيق بما يفسرون، ولا تصدق جميع ما يقولون. فليس ثمة إلاَّ مضاربات لها ضجيجها يحاولون تطبيقها على أسرار الكون، وأسراره آماد أوسع من أن تنتظمها قواعد.

((قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك)).

((وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك)).

فهل كان ممّا يقبله قواعد الكون أن ينتقل عرش بلقيس من أطراف اليمن إلى مقر سليمان، في ظرف لا يتعدى قيام القائم أم كان من نظام الحياة أن ينتقل إليه في ارتداد البصر؟

الواقع أنها قدرة الله لا تحدها نهاية، وأنها أحداث لا تتسع لها ملكة العقل، وأنها آماد وراء نظم الكون لا تفسرها قواعد.

وإذا كان العلم قد اكتشف في عصور متعاقبة ظواهر محدودة من أسرار الكون، فدل على مبلغ الآماد التي كانت مغلقة على القدامى، فإن في هذه الظاهرة ما يدل في الوقت نفسه على احتمال وجود آماد أوسع لا تزال رهينة الأسرار المغلقة في الكون.

وإن نظرة مبسطة إلى عنصر واحد ممّا اكتشفته العصور الحديثة، وعلاقته الإيجابية بآخر مثله في عناصر الكون، وما يحدثان من أثر من جراء تلامسهما لقمين بأن يفتح أمامك آفاقاً أوسع من أن تنتهي فيها إلى غاية، أو تصل عندها إلى تنظيم محدود.

قلت مرة لرجل من علماء الحسِيّات: لا أعتقد أن تعصبك للأدلة الحسِّية يمضي بك إلى نهاية الشوط فيما تذهب، فأنت تشاهد أنواعاً من التفاعلات بين عناصر الكون لا تملك أن لا تصدق بها وتؤمن.. فإذا رأيتني أدَّعي لك من باب المقابلة أن في ريق إنسان معين عنصراً فعالاً تظهر آثاره إذا لامس داءً خاصاً، ويؤدي تفاعلهما إلى نتيجة خاصة. فما بالك تتأبى عليَّ القبول، وتلوي باحثاً عن تفاصيل أخرى رجاء أن تلمس شيئاً حسياً فيها.. إنك بهذا تتعسف وتأبى إلاَّ أن تسلم ببعض القاعدة وتضرب عن بعضها الآخر.

إننا نخلص من جميع ما أسلفنا إلى نتيجة نستطيع أن نقول في نهايتها أن في الكون أسراراً لا تزال تستعصي على الحل، وأن فيه حقائق لا تزال في مكانها في المغيّبات، ولا يزال العلم عاجزاً عن مناقشتها، واستنتاج ما تلمسه اليد من أدلتها.

فإذا صادفتك شخصية مهيبة، أو روح تستثقل ظلها، فدع علماء النفس والروح يحاولون فك ألغازها، فإذا أعوزك الاقتناع فلا تكلّف نفسك أكثر من أن تحيلها إلى آماد الكون وأسراره المستغلقة.

وقس على هذا تأثير عنصر خاص عند ملامسة عنصر آخر، قد يجمع بينهما تجاوب خاص لم يفسره العلم، ولم تصل إليه بعد ملكات العلماء.. فيجب ألاَّ تتعصب لما لا تفهم كما يجب ألاَّ تمض سلس القياد للمخرِّفين.

ولا تنسَ أن تدرج فيما أدرجت بعض الظواهر التي تلوح في حياة المحظوظين على أن تحتاط ما أمكنتك الحيطة.. فقد درج الناس على التوسع في إطلاق الحظ على كل ناجح، وقد يكون في هذا الإطلاق غمط للعاملين، وخلط بين المجدودين والمجدين..

وما انتهى الأستاذ الجني إلى حدّه هذا في البحث حتى كان قد أذن الوقت بالانصراف، فأرجأ بقية الحديث إلى ندوة الغد.

وسأرجىء لك بدوري البقية إلى رسالتي في الغد. وأرجو أن أكون قد أيقظت في نفسك عوامل البحث، كما أرجو أن تكون قد طمأنت والدتي على أمري.. واسلم.

-14-

صديقي:

لك الهناء.

كانت الندوة حافلة بجماهير لا يكاد يأتي عليها الإحصاء. كانت تفِد من بطون الأغوار، وتتسلل من مهابط الوديان، في أشكال تمثل عشرات من قبائل الجن وسلالة العفاريت والمردة، وبعضهم كانت تنبت به الأرض في صور شتّى من حيوانات برية، وطيور، وحشرات كفيلة بأن تشيع الرعب والهلع فيما لم يألفها ويتعود الاختلاط بها.

ولا أكذبك أنه دار بخاطري ذكرى الحبيبة الأليفة))هبوب((، فتمنيتُ لو أسعد برؤيتها، فلم يسعفني التوفيق. وجال في ذهني فكرة اختلاطها بهذه الأنواع من الطير والحشرات، ولم أستبعد وجودها متلبسة بإحدى صورهم، إلاَّ أنه لم يلحْ لي ما أجزم به، سلباً أو إيجاباً.

ورأيتني فجأة أستيقظ في أعماقي، وأهيب بنفسي أن تربأ بي من هواجس ليس فيها إلاَّ ما يطيل أمد شقائي ويعذبني.

قلت: ما يحملني على هذا التعذيب؟

وفي سبيل مَن.. كل هذا العناء؟

ما يمنعني أن أكبر على هذه الترّهات، وأبتدع لنفسي في الغرام بدعة تتنافى مع هيام المفتونين، وصباباتهم، وليقولوا ما شاءت لهم مذاهبهم في الحب، وليقذفوا أحاسيسي ما وسعهم القذف. فأنا بهم أول الكافرين.

وشعرت في أعقاب هذه اليقظة أني أنشط من عقال، وأن لوعتي تتبدد في غير رجعة. فتنفست الصعداء. ولويت باهتمامي إلى منصة الأستاذ أرقب ما يقول:

أخي:

حال دون المضي في رسالتي عزيز من أصدقائي الجن، وافاني في الندوة الساعة، فشغلني استقباله عن إتمام الرسالة، فاعذرني.. وإلى الملتقى.

-15-

صديقي:

طبت.

وعدتك في رسالة سبقت أن أتمم لك حديث الأستاذ في ندوة الجن، في موضوع المحظوظين في الحياة.

قال الأستاذ:

تلخَّص لدينا من جميع ما سلف أن وراء نظم الكون آماداً لا تنتظمها قواعد، وأنه قد تصادفك شخصية مهيبة، وأخرى ثقيلة الظل، وغيرها ذات مؤثر خاص، فلا تستنكف أن تترك علماء النفس يحاولون تعليل هذه الظواهر ما أمكنتهم المحاولة، فإذا أعوزهم التعليل أو قصُر عن إقناعك فلا تستكثر أن تُحيلها إلى آماد الكون المستغلقة والتي لم تنتظمها إلى اليوم قاعدة معينة.

وكذلك الشأن في المحظوظين. فليس لديك ما يمنعك أن تتعقب بالدرس والتمحيص كل الملابسات التي تحيط بالمحظوظ، والتي دفعت به إلى النجاح. فقد يكون من أصحاب الإقدام،

وللإقدام قيمته في الحياة، وقد يكون لديه حصافة ذات اختصاص فيما يعالج، وللاختصاص قيمته في النجاح. وقد يكون له غير هذا أو ذلك من أسباب يطول استقصاؤها، فحاول أن تتلمس كافة الملابسات، وأن تستنتج المميزات المهيئة قبل أن تمضي مضي التيار العام، وقبل أن تحيل إلى الحظ كل الظواهر فقد يكون في هذا من الغبن وغمط الجد ما لا يتفق والعدل.

ولا مانع عندي إذا تعذر التماس المهيئات أن تحيل إلى الحظ ما تريد أن تحيل من توفيق ما دمت تعلم أنه ليس للكون من قواعد تنتظمها حدود. وما دمت تعلم أن المؤثرات الكونية لم تتكشف إلى اليوم جميع آفاقها، ولم تعرف بعد مدى وظائفها..

إذا كنت تستكثر أن تعنو لمُهيب بدون مبرر، ولا تستبعد أن تستثقل ظلاً، أو تستعذب روحاً لغير مميزات واضحة.. وإذا كنت تصدق أن عنصراً في الكون قد يستجيب لعنصر مفارق، ويتفاعلان في كهربائية خاصة، وإذا كنت لا تستنكر تأثير مادة خاصة في شخص ما بكيفية خاصة، فأحرى بك أن تمضي مضيك في هذا المذهب، وأن لا تجحد آية من آيات الله، ولا كوكباً من كواكبه، أو عنصراً من عناصر كونه، أو مادة ممّا خلق أودع فيها من الفعّالية ما تعلم وما لا تعلم، ومن الخواص ما لا ينتظم في قاعدة ولا يدخل تحت حصر.. ومن هنا نجم التوفيق فسمّيناه مرة بالحظ، وأخرى بالسعادة، وثالثة بمحاسن الصدف. وهو في مجموعه لا يبعد عن فعّالية جذابة ركّبت في عنصره فقادته إلى النجاح.

-16-

صديقي:

إني لقيتها!!

ولقد لقيت بها فرصة لا يهيئها الزمان فيما قلَّ من فلتاته.. فقدَّرت أن في إفلات هذه الفرصة فواتاً لا تعوّضه فرصة أخرى، فاحتلت حتى تنحَّيت بها إلى ظل دوحة كانت أغصانها تتشابك فوق منحدر من منحدرات السيل الملتوية في بطن الوادي، وابتدرتها:

–هبوب.. أترينني أُسيئك إذا صارحتك بأني أستجمل تقاطيعك الفاتنة، ومرآك الجذاب!؟

–إنه شيء لا يعنيني كثيراً إلاَّ إذا ترتبت على ذلك نتائج خاصة بي.

–وهل لي أن أعرف نوع النتائج الخاصة التي تخشين أن تترتب على ذلك؟

–لا يجب أن تعنى نفسك بتفاسير تسبق دلائلها. وحسبك أني سأدعك تباشر خصوصياتك بالشكل الذي تراه لنفسك، وأن لا أعترض إلاَّ فيما يتناول شؤوني عند أوانه.

–دعيني أفترض أنه سيترتب على هذا الاستعجال نتائج إيجابية لا بد منها لتدل على كرمك. فهلا يجب أن تكوني كريمة إلى حد يتفق مع سماحة هذا المحيا البريء الطاهر؟!

هبوب.. إذا كنت لا تمانعين فإني سعيد بإخلاصي لك.. سعيد بحبك!

–أهكذا.. وبمثل هذه الطفرة تقفز إلى ختام القصة قبل أن نبدأها؟

–لا أرى ما يدعو إلى اعتبارها قصة، حتى نفصل فيها بين المقدِّمات والمتمِّمات.. إن الأمر في رأيي أيسر من أن نطيل في شأنه أكثر ممّا أطلنا، وإن إجابة واحدة لا تخرجين فيها عن ((لا.. أو نعم)) كفيلة باختصاره في شكل لا تتَّسع آفاقه للمد والجزر.

–أفي استطاعتك أن تصدقني الأمر في شأن إخلاصك؟ وتصارحني بحق، أأنت تحب في هبوب ما اعتبرته جمالاً في محيّاها، وفتنة في تقاطيع وجهها. أم هو الحب خالصاً لشخصها، مصروفاً فيه النظر عن كل ما حسبته يحملها ويغريك بها؟؟

–لا أكذبك أن في الأمر ما يشبه الإزدواج فأنا كإنسان.. يؤانسني الجمال وتستهويني تقاطيعه فأصبو إليه كشهي ممتع لذيذ، ويزدوج الجمال في صاحبه أمامي كما تزدوج الأقانيم كشاخص واحد لا يقبل التحليل والتفصيل.

–وإذا في مثل هذا الشاخص دمامة تنبو العين عنها ألاَّ تكون دوافع الإغراء لاغية؟

–إنني لا أرى أن نتكلّف هذا التعسف، وأن نفترض في مناسباتنا السعيدة شقاءً يكدر لذاذتنا بها.

–وإنني أرى أن تكون أصرح ممّا كنت.. أمفتون أنت فيما تراه جمالاً شاخصاً في مثالي، أم في مثالي مجرداً لذاته.

–إنني على صبابتي بالجمال لا تستهويني فتنة مجردة عن نفس أطيب لعشرتها، وأنه بعد أن يفتنني الجمال اشترط فيه الشاخص الحبيب بعشرته، الكريم بخصاله.

–يقولون إنه لا شرط مع الفتنة ولا تمييز مع الحب.

–ذلك حب ابتدعه أحمق، وسايره فيه مجنون، وجاءت الأساطير بأباطيلها ومينها فشايعتها عليه وتركت الحوادث الكاذبة تروي من قصصه الخرافية ما ترك أثره في تفكيرنا.. فإذا نحا بنا الحب نحواً خاطئاً، فذاك نتيجة ما دسته الأجيال في أفهامنا من معاني الحب، وما طبعتنا به الرواية والقصة.

قلت هذا وما لبثت أن رأيت أثر الدهشة لائحاً في جبينها الواسع، وما لبثت أن رأيتها تضع يدها في يدي لتقول:

–سأستأنف معك الحديث في هذا الموضوع، في شكل مبسَّط تسمح به ساعة أخرى أطول من هذه فامنحني العذر، وستجدني حريصة على موافاتك حرصي على متابعة البحث.

وشدَّت على يدي في حرارة المعجب، ومضت تتهادى في خفة القطا ورشاقته..

-17-

صديقي:

لك الهناء.

إنها صدقت الوعد. لقد كان مساء جميلاً ازدحمت السماء فيه بطبقات رقيقة من السحاب، وانتشرت في الأفق.. وكان رذاذ المطر يتخلَّل فروع الدوحة فتسمع لتوقيعه بين أوراقها ألحاناً أشبه ما تكون بعبث الأطفال في أوتار قيثارة.. وكانت في جلستها تستند على جذر ناتيء من الدوحة، وتتجه إليَّ بوجه شاحب في بياضه الناصع صفرة من لون الذهب النقي الخالص.

قالت: وبعد؟

قلت: إنني في انتظار رأيك الأخير فيما أسلفت.

فاعتدلت في جلستها، وابتدرتني في صوت المتعجرف.

–أمحب أنت تحاول وصال مَن أحببت من انكسار المحبين وضراعتهم؟ أم تاجر تساوم في صفقة، وتناقش في العرض والطلب قبل توقيع الصك، وتذليله بالختم والطابع؟؟

فإن كنت الأول فأنت عاشق جرى القلم في شأنك بما يتفق وحظك في شكل لا يتَّسع للمناقشة.. وإن كنت الثاني ففي محافل السوق متسع لما تمتهن، وفي أعماله ما يتفق مع مذهبك في مناقشة العرض والطلب، وتوقيع الصكوك.

–إنها مصلحة يا فتاتي قبل أن تكون أي شيء آخر.. وإنها مقابلة لا يستوي بينها نتيجة صحيحة إلاَّ على أساس من التفاهم المتبادل.. وإنك بعد ذلك في حل من أن تستعيري لها اسم التجارة، أو أي اسم آخر تختارينه لها، على ألاَّ تفرضي فيها حكماً إدارياً لا يتسع للمناقشة، ففي ذلك عتوّ أليَق بالعبد المهين منه بالمتودد العاشق، لا تشترطي الضراعة والانكسار، فذلك تقحم على العلاقات العاطفية وتعسف لا مبرر له.

هبوب.. أتنكري أن الحب متعة يجتليها روحان متحابان، وأنه فيما عدا ذلك سعير يذخر بالكبريت والنار؟.

–لست أخالفك في هذا، ولكنني لا أدري إذا ما استطاع المحب أن يجني اليوم متعته أيملك أن يتحاشاه غداً إذا ذخر بالكبريت والنار؟

هذا مفترق صالح لأن نبدأ منه البحث في يمينه يمضي المحب المأخوذ بما افتتن مضي الأسير المملوك يستعطي الرحمة، ويطلب الإحسان.. وفي شماله يمضي صنوه مضي المختار يزن الخطوة قبل أن يضعها، ويناقش فيما يأخذ قبل أن يعطي، ويأبى على نفسه الحركة إلاَّ في وجه بيِّن، وسبيل واضح.

–إنك بهذا تدرج الحب في قوائم الماديات، وتعطيه من الفروض ما تعطي أحداث الحياة ممّا يتناوله عقلك.

–وما يمنعنا أن نقول هذا؟

–يمنعنا الواقع!!

–بل يمنعنا ما تركز في أعمق خفايا عقلنا الباطن من أوهام كاذبة.. والمسؤول عن هذا أول مشعوذ اخترع أكذوبة الحب، في صور أسندها إلى الشياطين مرة وإلى استجابة في حنايا القلوب أو مجاري الدم مرة أخرى.. وسايره في هذا جاهل أو مجنون، فتبلورت الفكرة،

ووجدت على مر الأجيال من يُشايعها، واغتنمها القصاصون لترَّهاتهم، فجعلوا منها مصدراً ثرثراً حافلاً بالمبكيات والمضحكات، ترويجاً لبضاعتهم، وإشباعاً لشهواتهم.. وخلف في أعقاب ذلك خلف يُجلّون ما ترويه الكتب في غير فحص، ويُقدسون ما تحدثت به الأجيال قداستهم لكل مأثور يستعصي على المناقشة، ولا يقبل الجدال. فتأصّلت الفكرة في الخفايا الباطنية للعقول، وانطبع الناس عليها انطباعهم بكل موروث مقدس.

–ولِمَ لا يكون تحليلك افتراضاً تتخيّله، وتبني له قصوراً من الرمال؟

–تصوريني قبلت هذا، وسلَّمت به. فهلا يتعيَّن علينا أن نتلمَّس الحقائق في المذهب المعارض.. تعالي نقل مع القائلين بأن الحب شيء أغزر من المادة، وأبعد من أن يباشره العقل.. هنا تواجهنا أسئلة لا بد منها؛ هل هو نفثة من الشياطين تنفث في النفس ما تنفثه في العقد؟ أم هو استجابة في حنايا القلب ومجاري الدم أبعد من أن تتناولها تصرفات العقول؟؟

–إنه ينقصك لتقيمي البرهان في هذا شهود من الواقع.

–أجل فقد شهدت الحياة شخوصاً كانت أرجح ما يكون عليه العقل، وأسمى ما تنعت به العفة.. فلم يغنها عقلها عندما استهواها الحب ولم تربأ بها عفتها عنه.. ولقد جرت حوادثهم في هذا مجرى الأمثال، وعرف الناس في كل عصر من حوادثهم وما يغني عنه البيان.. فمنهم من أطبق عليه الجنون، ومنهم من قضى نحبه، ومنهم من بات على يأس ينتظر.

ألا ترى أنه لو كان في أمر الحب ما يتناوله العقل لرأينا لرجاحة العقول، وعفة النفوس تأثيرها في مصير الضحايا التي ذكرت؟؟

–أشهد أن ما أشيع عن مثل هذه الحوادث يغني عن البيان، وأن ما سجله التاريخ أوسع ممّا تشيرين.. إنه سجل عن شهداء الغرام مئات الألوف من القصص.. ولكنك لا تملكين قيدي بجميع ما فيها، فقد أثبت التحري أن لوضع القصاصين علاقة بما سجل المؤرخون في هذا الباب، وأن أكثرهم كان معتمداً في نظر الكثير من المؤرخين.

على أنها إذا ثبتت حادثة أو أكثر فليس في تصرفات الشواذ والمجانين ما يمكن الاحتجاج به في ميادين الحياة.

–ولكنك لا يجب أن تنسى ما سجل الشعر في غرامهم وما تشهد به للتاريخ قصائدهم.

لا أنسى؛ ولكنك تعرفين أنهم شعراء –ولا مؤاخذة– يُسايرون العقائد السائدة، وتُشايعهم أخِيلة خصبة.. وأعذب الشعر أكذبه –كما كانوا يقولون– على أني لا أمانع في أن تصح أخبار هذه القصص وأكثر منها، وأن يصدق الشعراء فيما صوّروا.. لا أمانع في هذا، وأنا أعلم أن لتأثير الوهم من التأثير ما ليس للحقيقة، وأن ما استقر في الخفايا الباطنة للعقول في مدى الأجيال السحيقة له قيمته من التأثير في النفس.. ألا لعنة الله على أول مشعوذ اخترع هذه الفِرية، وأول مجنون شايعه عليها، وأول جمهور اعتقدها، وأتاح لها فرصة الرسوب في أعمق خفايا العقول، لتنطبع عليها أفكارنا وتتسع آفاقها لقرائح شعرائنا.

ولحظت أنني أثير دهشتها بهذا المنطق، وأن مسحة من معاني الإقناع تلوح في هدوء على صفحة وجهها، فلم أشأ أن أطيل.. واستشرتها في أن ترجىء البحث إلى مثل موعدنا في الغد؛ فلبَّت إلى موافقتي مسرعة وافترقنا..

-18-

صديقي:

سعدت حياتك.

إنها أبرّت بوعدها.

وإنها بعد هذا كانت أحرص مني، بدليل أنها سبقتني إلى الموعد، وأنها أخبرتني أنها ظلت تنتظرني أكثر من ساعة.. وبعد أن حييتها بأرق ما يحضرني من معاني التحية، وما أندر ما يحضرني من المعاني الرقيقة قلت:

–ألا نزال في مكاننا من البحث؟

–أجل.. أو تقلع عن أسلوبك التجاري القمين بأسواق النخاسة، وتؤمن بما وراء المادة إيمانك بفردٍ صمد لا تحيط بشيء من علمه إلاَّ بما شاء.

–الإيمان بصمدية مَن لا أحيط بعلمه لا يعني قط الإيمان بخرافة توارثتها الأجيال عن كتب القصاصين، ونوادر أصحاب المِلح، ومبالغات المبدعين من الشعراء، وغباوة البلداء من الممرورين.. إنما سبيل الإيمان التبصر وأخذ الأمور على وجوه واضحة، وفرز الأسانيد المتصلة بمصدرها الصحيح، وأنه لا يحتاط في المغيبات التي لا يدركها الحس أحد ما احتاط..

ولكني في قصة الحب لا أجد ما يحملني على اعتبارها من شؤون وراء المادة، إلاَّ إذا ألغيت تحصيلي فيه من التجارب.

–أمامك مثل قائم يحيل شبهاتك إلى هشيم تذروه العواصف.

–يسرني مثل هذا المثل ما قامت أسبابه على وجه جلي واضح.

–ألم تشهد في حياتك وجهاً فاتناً تطالعك فيه أهداب وطف، تستقر سهامها في قلبك من نظرة خاطفة فتترك أثرها دامياً في حناياك؟؟

ألم يهجرك في صباك حبيب، فشعرت في فؤادك فراغاً لا تملأه الأرض ومن فيها؟؟

ألم تفاجئك فيما عشت صدفة طالعك فيها محيا حبيبك الهاجر، فمشت في أوصالك رعدة كأنها من الكهرباء، واختلجت كل جارحة فيك، وشعرت بلسانك يتلعثم، وفؤادك يخفق، ومعاني الكلمات تلتاث عليك.. إذا صادفك شيء من هذا، وأكبر ظني أنه لا يصادفك، فستضطرب عليك فلسفتك، وتجد نفسك من جديد أمام ألغاز في الحب أغزر من أن تنطوي عليها مادة، وأبعد من أن يتناولها عقل يناقش القواعد، ويرتب على مقدماتها نتائج.. وأيقنت بأن وراء المادة المحسوسة آفاقاً لا تجدها فلسفتك.

ما أغرب ما تفهميني.. أرجو أن لا تُخرجي من حسابك قط أنني أول من يُقدّر سعة الآفاق فيما وراء المحسوسات.. وأن سهام الأهداب الوطف لم تخطئني، وأني عانيت من التياع المهاجرين، ومشت في أوصالي من رعدة المفاجآت الخاطفة ما يُستعصى على الوصف، وأني جربت كل ما قاساه الممرورون من مجانين الحب.. إلاَّ أنني أبيت في النتيجة إلاَّ أن أحتفظ بمسكة من العقل أناقش بها كل هذه الشعوذة، وأبت فلسفتي الخاصة إلاَّ أن ترد كل علة في الحب إلى أصلها في الحياة.

أكنت تحسبين العلاقة بين الفراغ في الفؤاد، وفقد الحبيب علاقة لها معناها الروحاني أو الشيطاني، أو شيئاً يجري على مثل هذا النسق؟؟ أم أنت تحسبين الرعدة والكهربائية في اللحظة التي يصادفني فيها الحبيب أكثر من تجاوب نفسي له ظواهره العديدة في غير الهيام المجنون؟

إن في الليمونة حرافة حامضة خاصة عرفها مذاقك. وأفرز من لعابه في امتصاصها ما أفرز.. فإذا طالت غيبته عنك، ثم عرض من ذكرها عرض فستشعرين بلعابك سائلاً يفرزه مذاقك كما لو كان فصاً من الليمون بين أسنانك، فهل ترين علاقة روحانية تربط بين ذكرى الليمون وفرز اللعاب، أم جامع من الشيطان بينهما؟؟

الواقع أنها ذنبرية تنبه لها الجهاز العصبي أول ما عرض ذكر الليمونة، فأرسل إشارته إلى حساسية الذوق من فمك، فأدى وظيفته في إفراز اللعاب كعادته في كل حالة يمتص فيها فصاً من الليمون، وفي مناحي الحياة لهذا ألف قبيل؛ فقد تصادفك ساعة هنيئة تتفتح لها نفسك ثم لا تلبث أن تغشاك ذكرى منغصة من ذكريات الماضي، فإذا نفسك المفتوحة لا تلبث أن تنكمش، وفؤادك ينقبض، وتشعر أنك تضيق بنفسك، وتلتاع، وتكاد أن تمزق الكآبة والأسى صدرك أفكان في هذا أكثر من تنبه عصبي أثار كامناً في أعماق نفسك، أو خفايا عقلك، وانتهت إشارته إلى ما تفتح في صدرك فانكمش لها وقبض.

كذلك كان الأمر في الحب، فقد انطوى عقلك الباطن بتأثير الخرافة الموروثة على طعم خاص بالحب. وانطوت نفسك على ألوان لها صبغتها التقليدية.

فإذا فاجأتك النظرة الخاطفة تنبَّه عصبك؛ وأرسل إشارته إلى مخابىء الخرافة فأثارها من مكامنها بما لصق بها من أوضار وشعرت بالرعدة الكهربائية تمشي في أوصالك لأن فكرة الحبيب المدفون في خفايا عقلك كانت الخرافة قد دفنتها ملوثة بهذه المعاني..

ثم ما يمنع فؤادك الفارغ أن يظل فارغاً في ساعات الهجر تملأه الأرض ومن فيها ما دمت قد أحببت الحب الذي انطوى عقلك الباطن على معانيه بهذه الألوان.

الذكريات تنبِّه العصب، والعصب يرسل إشارته إلى مكامن الفكر ليثيرها.. ولا تثار الفكرة إلاَّ بألوانها التي دفنت بها فحاولي أن لا يطوي عقلك الباطن فكرة الحب في ألوان سوداء لتجدي أن الذكريات لا تثيرها إلاَّ فيما انطوت عليه من لبوس.

وحاولي أن لا تلجي مداخل الحب وأنت تعتقدين ظلاله الثقيلة لتجدي أن الهجر لا يترك في الفؤاد كل الفراغ الذي يشعر به المخدوعون والممرورون.

الحب مرآة تنعكس على صفحتها ظلال أفكارك في ألوانها السوداء القاتمة، أو البيضاء الناصعة.

فاختاري لها ما يعجبك من ألوان تحمدي أو تشقي.

ومضى بنا البحث في هذا النحو عذباً طرياً حتى انتصف الليل أو كاد، وتقشعت سحابة في آفاق الجنوب عن كوكب ناصع يشع بريقه في خيوط رقيقة لامعة، فتطلعت إليه طويلاً في سكون الغافي.. ثم التفتت إليه في أدب المعجب وقالت: أتنقشع الخرافات عن حقائق لها مثل بريق هذا الكوكب وقد انقشعت عنه الغيوم؟

قلت: إنك تُخجلين تواضعي.. يا فتاتي.

قالت: وقد بدأت تتحفز للقيام. لا تزال المسافة بعيدة بيننا وبين هذه النسبة.. فهوِّن عليك، وادعني باسم جنسي. وقل يا فتاة.

قلت: إنه شأنك.

قالت: وهي تودعني؛ على أن لا تستاء، وأن تعطيني من وقتك كأخت ما تسمح به أوقاتي وفرصك؛ ثم شدت على يدي، ومضت تنحدر في تعاريج الأكمة، وتمضي بمضيها في أعماق الوادي السحيق.

-19-

يا صاحبي:

أتمنى رؤيتك.

لن أحدثك عن ((هبوب))أكثر ممّا حدثتك، وإن شئت أن لا أكذبك فاعلم أنها غادرتني، وبودي لو ملكت أن لا تغادرني لحظة من عمري.. غادرتني وفي قلبي لفراقها لوعة لو تقاسمها قلوب أهل القاع الذي أقطنه لكانت كافية لالتياعهم، والضغط على صدورهم بأقسى ما تضغط الكآبة والهم.

لعنة الله على أول مخرف لوث الأفكار بترّهات الحب، وترك الأجيال تنقل جرثومة عدواه إلى دمائنا، وتترك أثرها في الأغوار العميقة من عقولنا.

أترى يا صديقي إلى أي حد تستعبدنا العقائد الضالة بقوة تأثير الوراثة؟ وإلى أي حد تتأثر أحاسيسنا بها؟ إنها أضحوكة الحياة.. فدعني أسخر منها رغم التباهي، وأعدك أنني سأغدو أشد أساراً من أن تعصف بي عواصفها.. فانتظر رسائلي غداً عن دراساتي الجديدة، وثق أني سأثبت لك صمودي لعاديات الحب الجامحة، وستقرأ كتاباتي الخلية، إلاَّ ممّا عنيت به من دراسات في الحياة.

-20-

صديقي:

لك العز.

قال ساطور عميد الأسرة الثالثة عشرة من أسر وادي الجن في حشد حافل من المستمعين.

((ما رأيك في حفاوة الطبقات الدنيا من الإنس بتمكين الفوارق بينهم وبين المستعلين منهم، والعناية بتقديسهم عناية يندفعون إليها بطبائعهم قبل أن يكرهوا عليها أو يطالبون بها))؟

وساطور شخصية من الجن يعلنك وجودها صوته الأجش الغليظ. فقد دخل ظهره في عجزه حتى اختزلت قامته فيما يوازي ربع قامة الرجل، واتّسع ما بين فكيه فوق حنجرة كأنها المطاط المنفوخ تسمع لصوته فيها قرقرة وضوضاء تحسبها جلبة جماعة من الغجر تعالت أصواتهم معاً في غير ترتيب، وهو مع هذا يأبى إلاَّ أن يكون بحّاثة من طراز ممتاز، ويأبى إلاَّ أن يشعرك بأن رأسه الكبير الضخم تتجاوب بين تلافيفه كل أفكار الحياة.

واستطرد ساطور حديثه بلهجة صاخبة فقال:

وقع بصري اليوم عندما شاهدت في أحد أزقة المدن الآهلة بالإنس، ثرياً من الوجهاء بدين الجسم، وقد أمسك بزمام جواده، بعد اعتلائه مرتفعاً صغيراً ليرتقي صهوته، ولم يبد على الحصان إظهار جفله، كما لم يظهر على الثري وهن أو ضعف عن الرقي.

وكان على مقربة منه جماعة من فقراء الحي، أقبلوا عليه متهافتين ليعاونوه في الاستواء فوق الصهوة –ولسذاجتهم، أو بساطة عقلياتهم– عندما اعتلى جواده وأشار لهم بيده مبدياً ابتسامته بضحكة انفرجت عنها شفتاه، اعتقدوا أنه يسخر بهم مازحاً كأنه أبدى لهم ضرباً من الكبرياء والاستهانة بشأنهم، فكادوا يتغامزون بعد أن تركهم، غير شاكرين صنيعتهم، وما لبثوا كذلك حيناً من الوقت، حتى أقبل رجل أسود اللون عملاق يستفهم عن سيده الناظر، وعرَّفهم وصفه وخِلقته فتبيَّن لهم نقيض ما حسبوه وأنه لم يكن متغطرساً ولا متكلّفاً لما بدر منه إذ إنه أصم لا يسمع، وأبكم لا يتكلم.

وبذا بدأ تأسفهم لمّا أن علموا بالحقيقة.. واطمأنت نفوسهم وهدأت ثائرتهم واضطرابهم!!

ولو أن مثل هذه الحادثة كانت في غير هذا الصنف من الإنس، لكانوا هؤلاء أوسع إدراكاً وأفسح تصويراً لبواطن الأمور كما هو الشأن عند فريق الجن الذين قد اشتهروا بذكائهم الخارق، وقوة إدراكهم للمواقف.. وحقيقة لا مرية فيها أن لله في خلقه شؤوناً!!

ولقد كان الأحرى، بأن ينظر الناس بعضهم إلى بعض بعين الحقيقة، فرب من يراه المرء – مستحقاً للمقت– يكون موضع العطف والمعذرة.

وقديماً قالوا: لو نظرنا إلى إخواننا بعين الظاهر قد مقتهم، وإذا أبصرناهم بعين الواقع لعذرناهم بل ربما التمسنا لهم أعذاراً.

ومتى عرفنا أن هناك قوانين شرعتها مِن وضع الناس في مواضعها، قامت المحبة بين الناس مقامها الأول، ومتى كان الحال كذلك عطف الغني على الفقير ووفر الضعيف القوي على أسس أكسبهم محبة بعضهم بعضاً، ولو أن المجتمع لا يخلو أبداً من حقد وحسد لاختلاف النفوس بحسب بيئاتها التي نشأت فيها، والأوساط التي درجت بينها بلا جدل ولا إجحاف.

ولو أنصف الناس استراح القاضي

وصار كل عن أخيه راضي

-21-

صديقي:

أتمنى لك حياة طيبة.

دعاني بالأمس إلى نزهة خلوية بعض زملائي في حلقة الشيخ))دهشور ..((والنزهة الخلوية عند هذا الصنف من الجن تعني الخروج المبكر إلى الخلاء في زمرة يشترك أفرادها في حمل ما لا بد من حمله، حتى إذا ما مضى بك مسرب الجبل إلى مرتفع القمة رأيت خطاً من أشخاص الجن يلتوي بالتواء الجادة أمامك ومن خلفك، وقد أُنيطت بظهر كل جني صرة أودعها نصيبه من الحمل كما تناط أطفال (التكارنة) بظهور أمهاتهم. واستثار دهشتي منظر عالمنا الجليل الشيخ دهشور؛ وقد أناط بظهره مثل الذي أناطوه؛ فرحت أغمز إلى زميل لي كان يرافقني فكان فاتحة حديث تداعت بتداعيه المعاني وانثالت بانثياله شجون وشجون!!

كان صاحبي يرى رأي طائفته من الجن في أن مشاركة الأستاذ تلاميذه في مثل هذا محاولة موفقة لتقليل الفوارق بين الطبقات، وهي من جانب الأستاذ دليل عملي على سمو مبادئه، وعنايته بتهيئة أولاده بما يتفق مع المثل العليا والخلق الفاضل.

وانساق الحديث بنا في غرار ذلك شيقاً طريفاً حتى راعتنا جلجلة صاخبة.. والتفتنا فإذا صوت (ساطور) يقرقر في نبراته الغليظة تعليقاً على ما نحن فيه فيقول:

إنني شخصياً أعرف أساتذة من الإنس يعطون لمقامهم أكثر ممّا يجب لدرجته بين العلماء، وأعرف شخصياً ما بعينه في إحدى مدن الإنس كان يطيل النظر في كل جماعة يمر بهم كأنه يستفزهم إلى مبادأته بالتسليم اعترافاً بتجلته، ومبادرة يده بالتقبيل إقراراً بحقه في الفضل، فكنت لا أدري أهو لون من العلم ينفث الزهو في عقد النفس، ويوحي إليها بالغرور أم هي جبلة جافية لم تصقلها الدراسة، أو تهذبها روح العلم!!

وعرفت رجلاً من بيوت الفضل فيها يكور عمامته في شكل يوحي بالتقديس ويجمع أطراف جبته في صورة تنطق بعظمة الأجداد، ويعد يده لينفحها كل مسلم، ويضعها تحت أنف كل مصافح كأنها قطعة من الحجر الأسود قُدِّست لينال شرف تقبيلها المتبركون، ويحظى بلثمها المحظيون.

كنت أراه يتبختر بلحيته العريضة الممشوطة فأتطاول بعنقي متشوقاً إلى تحيته فيأباها، ويطوي كشحه عني في طرف يتكسر تحت أهداب غليظة، وباصرة تزور في أقصى زاوية لا تراني من جفنه، فكنت لا أدري أهو جهل بمعاني القداسة التي أورثها إياه أجداده العظام؛ أم هو زيغ أضله الله به على علم!!

ولقد قام في نفسي أن أتشبث بتلابيب جبته، وأناديه به في عرض السابلة ((ألا تباً لك أيُّها الرجل فيما صنعت وضيعت لو أزور أجدادك أزورار طرفك، وصعروا خدودهم كما تفعل، لما كان لهم الشأن الذي ورثت قداسته اليوم، ولما كانت لك هذه العمامة التي تكور هامتك الجليلة وفي مفرقها يتراقص أولاد الشياطين)).

قلت يا ساطور ليس في كل أساتذتنا ما رأيت؛ ولا يزال في بيوتات الفضل لدينا مَن يقدس مبادىء بيته، ويحرص على أمجاده بروح المؤمن الصالح.

-22-

صديقي:

طابت حياتك.

لا تستكثر على الجن نزهاتهم فهم هنا يعنون بها كما يعنون بغذائهم من شربة الفحم و ((طير السراج)) المشوي، ويجعلون للهو ما يجعلون للجد من قيمة في حياتهم.

وهم في لهوهم يرسلون نفوسهم على سجاياهم، ويمارسون ألعاباً خاصة بهم أو يتفرقوا أشتاتاً بين ليات التلاع ليتسابقوا في أشواط تثير الضحك. وينطوي بعضهم بانطواء المغاور في سفوح الجبال فيسترخي ثم يترك أحاسيسه تنام في هدوء الغافي، وسكينة المستغرق. ويظل في استرخائه هادئاً مدة تطول أو تقصر بنسبة حاجته إلى الاستغراق. إنهم هنا يعلقون كثيراً على هذا الاستحمام، ويرون أن الفضل في نشاطهم وتوثب حيويتهم يعود في جل نواحيه إلى استغلالهم الفرص الخاصة بألعابهم ورقصهم.. استغلالاً مفيداً طيباً.

ستقول إنك لم تنقل إليّ جديداً بالنسبة إلى مواضيع كهذه أصبحت نتائجها شيئاً ملموساً.. وليتك تدري أنني جابهت بهذه القوة زميلاً لي من عفاريت الملاوي [2]على أثر مناقشة كانت بيننا في فوائد الاستحمام والنزهة، وأنني قلت له :((أتراني من الغباء والبساطة بحيث يعوزني فهم الفوائد الملموسة في هذا؟)) فما زاد على أن قال :((أنا لا أعني بفهمك بقدر ما أعني بتطبيقك.. فهذا مسرح بني قومك على مرمى بصري هامداً همود الأموات، لا تترتب فيه حركة ولا ينبض فيه عرق)).

ثم قال :((إننا هنا يا صاحبي نتوسع في تهيئة المواسم الحافلة باللعب فنجعل لكل مناسبة عيداً، ولكل عيد احتفالاً، ونترك الأعياد تتقارب مواسمها، ولا تتباعد مناسباتها، فراراً من سأم الحياة الرتيبة، وتنويعاً لأشكالها، ففي التنويع تجديد للحرية، وفي الحركة نشاط، وفي الاستحمام شحذ للعزائم وتوثُّب)).

والواقع أنني وإياك نعرف أنها حقائق ليس فيها جديد بالنسبة لما نعلم.. ولكني كنت أشعر أني أستحق الكسوف، وأن في إعراضنا عن مثل هذه الحقائق ما يدعو إلى الأسف؛ ويحمل على شديد الخجل.

([2]) - الملاوي: هي الدروب الملتوية بين الجبال ولعله يريد أن في العفاريت طبقة خاصة تسكن الملاوي .

-23-

صديقي:

أتمنى لقياك.

ها أنا اليوم ألقاها.. ألقى ((هبوب)) الجميلة في وجهها الوسيم. وقوامها اللدن، وأطرافها الدقيقة تتخطر على كثيب من الرمل الناعم تخطر الحمام في حصباء الحرم، بين قائتباي وباب بني العباس.. وصافحتني بسمة شارفة تشيع على شفتيها الرقيقتين، وترسم ظلالها على ما اتسع في جبينها الناصع الوضيء، فشعرت بهزة اضطرب لها كياني، وخفقة يلتاع لها ما بين جوانحي؛ وأحسست أن فؤادي يغور في آماد عميقة لا أعرف مستقرها ومستودعها.

وكأنها أحست بكل ما ينتابني، وطالعتها آثار واضحة من الصفحة الشائعة في صفحة وجهي فاتَّأدت في خطاها ثم وقفت تتشاغل بتضفير خصيلة كانت تتهدل على جانب من كتفها كأنها تريد أن تترك لي فرصة أسترد فيها ثباتي، وما اطَّرد من أنفاسي، ثم استأنفت

خطراتها في أناة ورقة، ثم عادت للوقوف في رشاقة النفري؛ ثم بادرتني بالتحية في صوت يكاد لفرط حنانه يذوب في كلماتها.

واستجمعت ما تبدد من جأشي، واستعدت ثباتي في صرامة القوي، وقدمت يدي أصافحها، وأضغط في ترفق على أناملها الرخوة الناعمة.

قالت أحموضة الليمون.. ترسل إشارتها إلى مراكز المخ فترسله هذه بدورها إلى حساسية الذوق من فمك فتؤدي وظيفتها في إفراز اللعاب الذي أرى . [3]

هو ذاك ولكنها في هذه المرة حموضية (اليوسفي) في لذاذته، ورِوائه، ولونه البهيج.

قالت وقد استأنفت مصافحتي وهي تغمز يدي بمثل الضغط الرقيق الذي ضغطت به أناملها: كنت أتمنى لو تمتعت بحديثك العذب ساعة ولكنني على موعد مع إحدى السيدات في هذا القاع المنفرد فاعذرني.. وإلى الملتقى على هذا الكثيب في الهدأة الأخيرة من الليلة الآتية.

([3]) - قال لها مرة: إن الكهربائية التي يشعر المحب بها عند لقيا حبيبته بعد الفراق أشبه بما يفرزه اللعاب عند رؤية الليمون، ويريد بهذا أنه لا علاقة روحية في هذا بل ذبذبة عصبية لا بد منها لتنبيه الإحساس لشيء له مذاقه الخاص؛ فأرادت أن تشير إلى هذا المعنى عندما رأته يضطرب أمامها .

-24-

صديقي:

أتمنى لك المجد.

إذا ادَّعيت لك أن الحب أنانية سخيفة جامحة لا ترعى الرأفة، ولا تعرف النِّصفة.. فلا تحمل دعواي محمل من يُلقي القول على عواهنه، فقد علَّمتني التجارب من فنونه ما لا يوفيه الحصر، ليتك تدري أن ((هبوب)) الجمال المترقرق، واللطف الفاتن، ينطوي على قسوة عاتية، وجبروت دونه جبروت الظالمين والطاغين.

كنت ختمت خطابي إليك أمس، وأودعته اليد التي تتعهد رسائلي، ثم التفتُّ لأقابل الشيخ ((طبطاب)) وهو عفريت من أصدقائي الخلَّص كان قد لاحظ نجوتي بهبوب على كتف الكثيب الرملي، فابتدر يهنئني بهذه النجوة الحالمة في ابتسامة عريضة، وسحنة تتراقص على محيّاها مئات المعاني والرموز.

قلت :((يا طبطاب أأكلفك كثيراً إذا تمنيت عليك حملي على أكتافك في أعقاب "هبوب" فإن في نفسي أن أحملها على الدهشة من قدرتي على ملاحقتها وراء العدوة القصوى، وأن أتندر على حساب ذلك ما وسعني التندر والضحك))

وحملني العفريت فطوى بي ما بين الجبال والقلاع من قفار متشعبة، وشعاب قفرة، ثم وقف بي في غمزة الفرس على حافة القاع من ناحيته القصوى في بطن الوادي، وتمنيت عليه أن يستميل إلى صخرة تتسع لإخفائي وراءها لأنادي باسمها من مكان لا تراني فيه تندراً عليها.. لكنني ما كدت أفعل حتى سمعت صوتها يوافيني في صورة استحال فيها مرحي إلى اكتئاب، وتندري إلى غصة أليمة.

لا يستبيح جماعة الجن في هذا الوادي لأنفسهم أن يكونوا أداة للتجسس فتلك خلال يحتقرونها حقارتهم لكل الخلال الرذيلة، ولكنها كانت لوناً من ألوان المزاح البريء أبت الصدفة إلاَّ أن تستخدمها في أسوأ ما تستخدم الجاسوسية المحتالة.

وأتاني صوتها كأزيز قطعة من الماس في مرورها على صفحة الزجاج لتقطعها؛ وسمعتها تخاطب صديقتها وهي تعنيني :((..إنه من عالم الإنس)) وإني غرمت به، وفتنني حبه، ففكرت في استصفائه لنفسي.. فلم أجد أيسر من أن أستهويه بحذق، وأستميله بأشكال الرؤى الخداعة البراقة لها ألوان الحسان بردائهن وجاذبيتهن الفاتنة حتى هوى، واستسلم لأحلامه الواهمة في مهاوي الوديان وشعابها، ثم تركته يندمج في عالمنا وتتكشف له عوالمه المجهولة وتدرج به الأيام فينسى موطنه ويفتتن في عالمه الجديد، ويهنأ بعشرة قبيلنا فيه، ويسعد بما أعجبه من مبادئهم في الحياة.. استهويته بهذا الأسلوب وتركته إلى اليوم لا يشعر بأثري فيه.. واقتضاني الفصل الأخير من الرواية أن أتعرض له كعفريت يجهل شأنه لأرى موقع جمالي من نفسه ومكاني من فتنته.

ودمدمت العجوز بمثل هزيم الرعود تسألها عن مدى ما انتهى إليه نجاحها فيما رشحت فيه نفسها، وسمعتها تجيب: إني بعد مغازلات تمنى فيها المسكين أن يرضيني فيها ما وسعت المغازلة أمثل اليوم دور المرغوب وأترك الأيام تتولّى إعداد النتائج في تؤدة المطمئن الواثق.

أترى يا صديقي هذه الخلال في قبيل أزكّي خصاله، وأحمد مبادئه، وأشيد بسمو صفاته؟

أترى أية أنانية يتردى فيها المحبون بدافع من هواهم، وأي مركب قاس يركبونه تحت ضغط جبروته الظالم، وأحكامه العاتية.

كدت أكفر بكل ما أسرني من خصال القبيل على إطلاقه.. لولا أني لا أجيز لنفسي الحكم على جمهور بتصرفات آحاد من أفرادهم خصوصاً وأنا أعلم ما في لوثة الحب من شذوذ، وما في شذوذه من ضغط لا يقوى على أساره إلاَّ واحد في كل مليون.

وبعد فهل لديك ما أسمعه في هذا أو تشير به؟

أما أنا فلا أكذبك أنني:

بتُّ أشكـو وأشكـر فـعله

فأعـجـب لشاكٍ منه شـاكـر

لكنك سوف لا ترى محلاً للعجب، فالحب الذي أغراها بفتنتي واستمالتي هو الحب الذي أسأل الله فيه الرحمة بكل الممرورين، والمجانين، وعبيد أشجانهم وعواطفهم.. وهو الحب الذي يجب أن أقدره لها بكل جوارحي، وأنسى في سبيله كل ما عانت من حيل لتقربني إليها، وتدنيني منها.

وأخيراً.. لا أرى لنفسي خيراً من أن أصارحها بما علمت، وأن أساومها عليه كمصلحة تتبادل منافعها على أسس ثابتة تتفق مع مبادئي التي كانت تنكرها وتجدِّف عليها حتى إذا ما انتهينا كطرفين متعادلين إلى ما يضمن النتائج فإني لا أرى شخصياً ما يمنعني من طلب يدها والعيش إلى جوارها سعيداً برقتها الجانية وجمالها الناطق في أهدابها الناعسة، وخدها الأسيل، وجبينها الشارق بالفتنة.

-25-

صديقي:

هنئت.

كان حفلاً تجلّت البساطة فيه بأجمل ما تتحلّى به حفلات الزواج وأفراحه.

ولا أرى ما يدعوني لأن أخبرك بأني كنت واضحاً مع فتاتي، وأنها رضيت مني بعد أن أوسعتها لوماً بكل القواعد التي رتبتها لحياتنا الجديدة، ورضيت منها بكل ما احتاطت به لتضمن لنفسها نتيجة المعشوق المدلى بفتنته وجماله، وأنها بعد موافقة ذويها أعلنت الخطبة وتقرَّر الاحتفال بالزواج. وإذا كانت حفلات الزواج لديكم لا تعنى بمراسيم الفرح بقدر ما تعنى بالعصب والتكاليف المرهقة، وإذا كانت لياليها تمضي عندكم أكثر ما تمضي فاترة سخيفة لا يميزها عن غيرها إلاَّ فداحة النفقات وأوصابها، فإن حفلات الزواج عند هذا القبيل من الجن تعنى بكل شيء إلاَّ التكاليف، وتحتفي بألوان زاهية من المراسيم لا تكاد تُكلِّفهم شيئاً من النفقات، كانت الطبول تقرع دويها في مخاوف الشعاب، وكانت شغاف الجبال، ومسالك

التلال، ودروب الوهاد؛ تنحدر بسيول من الجماهير لا تعرف أشكالها ولا تميز هيئاتها إلاَّ بما أناطت على ظهورها أو أكتافها من السلال الموقرة بأصناف الطعام وألوانه.

واستوعب الوادي بنجوده المتشابكة ولياته المتشعبة هذه الجماهير في زمر موزعة بتوزيع الأفياء في ظلال الدوح المتناثر بين الهضاب، وفي أكناف الصخور النائية في مدارج الجبال ودروبها، ومالت الشمس عن مدارها في الأفق فاتسعت ظلال الأفياء فبدأت موائد الطعام تمتد بامتداد الأروقة الظليلة، وبدأت كل زمرة تفرغ من سلالها بعض ما تحوي حتى استقام في كل ظل سماط، وحفل كل سماط بشتات الألوان استقلت به جماعته.. فكنت ترى أحشاء الوادي وحوافيه غاصة بالمتجمهرين صاخبة بضجيجهم العالي.

وشرع المتجمهرون في أعقاب فراغهم من الأكل يتفنَّنون في عرض ألعابهم فكان نافثوا الدخان من أفواههم تنعقد على رؤوسهم سحب من الغمام فيها الكثيف الغامق، والرقيق الشفاف، يتماوج ألوانه بين السنجابي والأزرق الزمردي ((واللازوردي)) ، واندلع اللهب في ثنايا الغمام، يشع شواظه، ويتطاير شرره فيلمع في حواشي الدخان المتصاعد، وتنعكس أشعته في حواشيه في بريق أخاذ. ونشط الشباب النطاط حول اللهب المستعر وبدأ التواثب فوق أعِنَّته يرتفع إلى أطباق عالية في حماس صاخب، وتعالت أصوات المغنين ترجع أصواتاً لها مثل تواقيع هدير السيول في مجاريها بين الصخور.

وقام بعض الشيوخ وعجائزه على أكتاف التلال يعرضون من فنونهم السحرية أشكالاً فيها الرائع المفزع، والمثير المدهش، والغريب المضحك.. كنت ترى أشلاءهم تتطاير في أجواز الفضاء ثم تعود في حركات بهلوانية إلى مستقرها من أجسامهم، وكنت ترى من يعمد إلى رأس صاحبه فينزعها كما ينزع البصلة من عروقها، ثم يقذفها كأنها الكرة لتختلط بعشرات الرؤوس مثلها في أجواز الفضاء، وتعود ليتناولها جسمها مرة، وغير جسمها أخرى، في أوضاع قد تختلف فيها مواقع الوجوه عن موضعها إلى ما يسامت الظهر والجنب، فترتفع ضحكات الضاحكين في جلبة صاخبة وضجيج يملأ صداه الوادي، واتخذت الفتيات الحسان بعض

أشكال الطيور الشادية، والعصافير المغردة، وانطلقن في آفاق الوادي يرفرفن بأجنحتهن في زهو الفاتنات، ويصدحن بتغاريدهن في ألحان تذوب فيها العذوبة والرقة والجمال.

ومالت الشمس إلى مغيبها وراء القمم العالية، ودلف القمر يتخطر في بياض الفضة الناصع إلى كبد الأفق، ويرسل ذوبه إشعاعاً يشرق على عرضات المتجمهرين تحت الأدواح وفي سفح الهضاب، وفي مجاري السيول من الوادي، واشتد حماس اللاعبين وتنوعت تفانينهم، فبتنا في ليلة ما رأيت ولن ترى في حياتك ما عشت أروع منها جمالاً، وأحفل بأسباب الغبطة والمرح.

دعني أتركك الآن إلى زفة العروس وسنلتقي في رسالة أخرى.

قبِّل عني جبين أمي وناصيتها، ومواطن المشي من خطواتها إذا وافقت، وحاول أن تفعم قلبها بما لقيت من هناء، وأن تشيع في حناياها السرور الذي أحسه، والفرح الذي يغمرني.. وقل لها إذا شاءت أن تشاركني هذه الخطوة فإن استهواءها لا يكلّفني كثيراً، وأن رفيقة حياتي يسرها أن تقوم على خدمتها بيننا في وادي الجن السحيق، وتتوافر على العناية بها ورضائها.

وإلى الملتقى..

-26-

صديقي:

عشت سعيداً:

ليس كالبساطة شيء أدعى إلى السرور، وأحفل بمعاني الجمال. كان يحتاط بي في حفلة الزفاف كوكبة من فاتنات الحسان في وادي الجن في أردية بيضاء في لون الفل، أو حمراء في مثل لمبة الشفق، أو خضراء كأنها صبغت في ذوب الزمرد، وليس على صدورهم، أو نحورهم، أو معاصمهم أية زينة متكلفة إلاّ ما كان من عقود انتظمتها حبات الصدف، أو زهرات الورود.

وليس في أوديتهم رغم ما يلمع من بريقها ما يدل على حبرتها، فقد كانت تعدو أثواباً مستعملة عُني بتنظيفها، وإتقان نقاوتها.

لا يُعنى غير الجن هنا في أمثال هذه المناسبات بغير أرديتهن النقية، وحليهن من الصدف والزهر، ولا يتكلفن في سبيل عرض جمالهن أو وجاهتهن ما يتكلفن عندكم من استعارة الحلي، أو بذل الرخيص والغالي في انتقاء الأثواب المستحدثة بمستحدثات الموضات والبدع.

وكن يغرقن في الضحك، ويهزأن أشهر الهزء بأترابهن من الإنس عندما كنت أحدثهن عمّا يلاقين من عنت في سبيل استعارة الحلي، واستئجار الثياب بالأثمان الفادحة ليظهرن بالمظاهر التي يرين أنها تليق بمقامهن، واستلقت واحدة على ظهرها من شدة الضحك، وانتابت أخرى نوبة حادة من السعال لفرط ما أغرقت فيه عندما كدت أقول :((وأكثر الحلي المستعار معروف الهوية، واضح النسب لا يجهل مالكيه أحد في مجالس حفلاتنا. وإن بعضه مرسوم بإشاراتهم، منوطة به خيوط ملونة لتفرزه عن أملاك الغير وتعيِّنه عند الاختلاط)).

وقالت ثالثة وقد صكت وجهها بأطراف أناملها الرقيقة ((ولكن ألا يفقد الحلي ميزته في الوجاهة وهو يبدو منوط به أعلام صاحب الملك الغائب)).

وقالت رابعة وهي تمثل أمامي دور المرتاب المتشكك :((إذا كان الغرض من عرض الأثواب الغالية، والحلي تأكيد الوجاهة والغنى. فأي غنى أو وجاهة يتأكدان بأثواب علتها علامات الإيجار ويوم العارية؟)).

قلت: إنه الاندماج في العادة يلغي مفعول العقل، ويُعطل ملكته. فأي عجب فيما ترين؟

قالت خامسة: ولكن الرجال.. أين الرجال عن هذا؟

قلت: أدرجتهم العادة فيما أدرجت، وتركت أكثرهم يئنون من فداحة وطئتها ثم يستأنفون سيرهم، تئن الجمال من ثقل أحمالها وأقدامها ماضية إلى نهاية الشوط. ستقول يا صاحبي إنني لم أكن وفياً في عرض مثالب قومي. والواقع أن الجن هنا لا تخفى عليهم أمثال هذه المثالب، وغيرهن فيما رأيت لم يزدن على أن مثلن دور تجاهل العارف الماكر، على أني شخصياً لا أرى رأيك في إخفاء آلامنا لنضيف إلى عيوبنا عيوب الرعديد الجبان. وحسبنا ما أمسكنا على طيه مئات السنين، فتركنا له فرصة التغلغل في أخفى أعماقنا. لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، ودعني لآرائي الشاذة؛ وإذا شئت فابك حياتنا وما فرَّطنا في جنب الله.

-27-

صديقي:

لك العز.

تلقيت تهنئتك الرقيقة، وأضحكتني تمنياتك بأن تراني إلى جوارك ثائباً إلى رشدي!

أتحسب أنه استهواني في هذا العالم المجهول محيا شارق بالفتنة، أو طلعة بارقة بالجمال؟

لا يا صديقي فتلك مصادفات لا يعجزني تلمسّها في غير قومي، وحسانهن الفاتنات.

لقد استهوتني حياة فاضلة لا تتصادفني عندكم في كتب التهذيب، ولا ألتمسها في غير القصص الأخلاقية التي تتخطى الواقع وتضرب في بيداء واسعة من الخيال.

أعجبني في حياة الجن هنا أنهم يحتفون بالعدل بين الطبقات ولا يدينون بالالتزامات التي يدين بها الضعفاء عندنا لأقربائهم في الحياة.. وأنك تجادلهم في أمجاد المبرزين منهم وأصحاب الأثر في حياتهم فيفغرون أفواههم فغر المشدوه المتعجب من ذهنيتك وضيق حدودها.

ذلك لأنهم يرون أن اليد المتفضلة بما تعطي لا تلبث أن تتقاضى ثمن ما أعطت واستوفت أكثر من الفضل الذي تعطيه.. وهم يقولون إنك إذا راعيت الفضل في تنظيم الحياة تراءى لك أن الخلق يتكافأون فيما يبذلون من جهودهم لبلادهم إلاَّ إذا استثنيت الكسول الهامل.. وأنه يجب ألاَّ تغفل أن لصناع الأحذية وعمال المجاري من المساهمة في بناء المجتمع ما يقل عن مساهمة القادة وأصحاب الجاه من العظماء، وأنه إذا تعيَّن علينا تقدير أصحاب المقام المبجل فلا يجب أن ننسى احترام العاملين في أدنى مستواهم وإعطائهم حقوقهم من التقدير والتجلة.. تلك الحقوق التي أعطاها عمر بن الخطاب لغفل في البادية من جبلة بن الأيهم عزيز قومه، وسيدهم العظيم.. وهم بهذا لا يرون محلاً للمفاضلة بين عامل في برجه المشيد وآخر يضرب بفأسه في جذذ الأرض، وهم يقولون أن ذهاب البيوت المجيدة في مسالكها من السؤدد واحتكار الفخار في صفوفهم يفتنهم بذواتهم، ويهيء المجتمع للتصنيف الذي لا تتساوى فيه المقدرات ولا تقبله قواعد العدل في الإسلام، ويعدهم لأسوأ النتائج المنتظرة.

يقولون أنه لا يجب أن أكون تابعاً إلاَّ في صورة محدودة ضيقة، وأنه لا يجب أن يتمتع أقوى مني بأي صغار يقدسه ويزريني.

هذه الفلسفة العميقة في أصول الحياة. على الفطرة التي فطر عليها الإسلام في حقائقه الأولى نظمت حياتهم على غير النظام الذي ألفناه في دنيانا، وصاغت آذاهم في أشكال لا ترهقك فيها آداب كاذبة، ولا تكلفك مجاملات زائفة، ولا تجد نفسك ملزماً بأرتال من الرسوم تغل حريتك، وتنغص حياتك..

-28-

صديقي:

لك السعد.

كل شيء هنا طلق يمضي على طبيعته دون أن يكون فيه أي أثر للصنعة والتكلف، ودون أن يجرحك فيه تعكير تحتال له بشيء من الزيف، وتستبين فيه بألوان من الخداع والغش.

كل شيء هنا صادر صريح.. فهم لا يغفرون لك أي إشارة تبدو فيها أثر التهول، ويرفضون بعناد جميع الألفاظ التي تختارها في مناسباتها الجميلة وتسمّيها أدباً.

ولقد هالني شيخ القبيلة بمواهبه القوية عندما كان يحدثني عن بدعة المجاملة في دنيانا، وما ترتب عليها من أخطار، وأدهشتني نظراته الثاقبة عندما كان يقول :((عندما ابتدع الضعفاء أسلوب التخدير بالمعاني المنتقاة، والألفاظ الموشاة دللوا على مبلغ استهانتهم بمقادير أنفسهم في الحياة، وأثبتوا من جهة أخرى غفلة كبارهم إلى الحد الذي يجوز فيه عليهم الغش، ويلتبس عليهم شؤونه ((ثم قال)) :وتفاقم الخطر عندما درجت الأيام بهذه البدعة. فطغت فريق

الضعفاء على الصغار، ولوثت بها دماءهم وتركت الأقوياء يألفون الغش ويتعودون أساره ويبيعون به هيام الحشاش بعقاره المكيف)).

((وما انتهى المطاف حتى فقد الدنيا صغارها بما تلوثت به دماؤها، وفقدت كبارها بما تزلزل من عقولها الراجحة، وأصبحت الحياة في الكون رهينة بمقوماتها من ألوان الخداع أسيرة بأنواعه المخدرة)).

وبعد فأنت قمين بالنظرة العادلة التي تربك مكاني من مواطن الرشد كما أنك قمين بالرأي الثاقب الذي يزيد الأشياء ويفيها حقها.

ولا أتمنى شيئاً في حياتي إلاَّ أن تُلهَم الرشد في ضوء بصيرتك النيِّرة، وأن يمتعني بلقيا أمي ولقياك في قاع من قيعة الجن، أو حلقة من حلقات فلاسفتهم على أكتاف الروابي وراء العدوة القصوى.

-29-

صديقي:

لك المجد.

سرتني شجاعتك في التمييز بين حياتنا وحياة الجن في هذه الوديان السحيقة.. ولست أعجب لأمرك فقد عرفت نفاذ بصيرتك، ومضيِّك في سبيل الحق، وقوة أسارك.

كدت أن أقول لك إنه لا يرضيني أن تختار أمي هذه القيعة المجهولة مدفوعة بعامل الرغبة في لقيا ابنها والاجتماع به؛ لكني ما علمت أنك وإياها آثرتما أن تجربا العيش مع هذا الرعيل من الجن حتى أكبرت فيكما هذا الإقدام الجريء، وهذه الشجاعة الفذة، سترحب بكم فدافد الجن ووديانها.. وإذا صحت عزيمة من ذكرت أنهم استهواهم نوع الحياة بين الجن من أصدقائك وجيرتك، والغلبة الغالبة من بني قومك فثق أن آفاق الجن المترامية لا تضيق بمن يختارها، وتتسع لأمم برمتها تعيش بعيشها وتذوب في حياتها. سأفاوض غداً من استخلصه

من أصدقائي الجن لتهيئة الحال التي يتم فيها النقل بالصورة التي يرونها مناسبة لأجرامكم الغليظة وذواتكم الثخينة.

-30-

صديقي:

سلمت وسعدت.

لا تهولنك كثرة الهائمين بحياة الجن، وتفاقم عدد الراغبين، وأقبل في من شئت من قومك وأمتك!!

ولقد انتهيت مع بعض أصدقائي من الجن على الطريقة التي تتم بها عملية نقل الألوف المؤلفة، فعلمت أنها سوف لا تكلفكم أكثر من أن تتوجهوا بكل قواكم العقلية إلى عالمهم، وتصبّوا عليها جميع طاقتها من التفكير، وعندئذٍ يشعر الهاوي منكم أن صوراً خيالية تستهويه، وتحبب إليه العزلة والانفراد.. فإذا أسلس تأملاته لما يتخيل له من الصور رأى أرواحاً غير منظورة تتكشف له، فإذا ترسم خطاها وولج في آثارها فسينتهي المطاف به إلى الآباد التي أعيش فيها بعين أغوار الجن وآفاقها المجهولة..

قبضة من آثار الجنّ

لعلّه بعد أن قضى ردحاً طويلاً بين فدافد الجن تأثرت أفكاره بفلسفتهم في الحياة، وتركت قلمه يرسل هذه الشذرات:

إذا أغلقت عليك بعض المعاني فذلك ذنبك. قبل أن يكون ذنب المعاني.

*** * ***

إذا لم تشجك تغريدة البلبل في الروح. فهذا لا يعني أنه ليس في الروح بلبل غريد!

*** * ***

القوة في غير ظلم، والعزة في غير كبرياء، والرشاقة في غير تكسر. صفات الرجل الذي لا يظفر التاريخ به إلاَّ مرة واحدة في كل ألف سنة.

*** * ***

رأيتك تنفح المرائي. فلم أدرِ أيّكما أبلغ في الخداع والرياء.

* * *

عندما نتكبر على فهم نفسية الصغير. نعلّمه العناد، وعندما نستهين بحقوق الضعيف، نجرئه على القسوة، وعندما نشتط في معاملة العاصين نعدُّهم للإثم. فلم لا نكون بعد هذا مسؤولين عن الغالبية الغالبة من شرور المعاندين، والطاغين، والمجرمين؟

* * *

أكبر ظني أنا لو أحصينا سيئات أدعياء الإصلاح في التاريخ. لتمنَّينا لو لم يكونوا!

* * *

ليس الإسلام نصوصاً تجود ترتيلها، ومتوناً تستظهر أسانيدها، وطقوساً تُرائي الناس بها، وليس في قلبك منها إلاَّ رصيد التاجر الفاجر.. إنما الإسلام عقيدة ينطوي عليها ضميرك فتُرهف أحاسيسك، وتُشذِّب سلوكك، وتطبعك على خير ما يطبع به عبد الله الصالح.

* * *

قالوا إن حكيماً يابانياً كان يرمز إلى السعادة الكاملة بتمثال وضع على هيئة ثلاثة قرود، يضع أحدها يديه على عينيه فلا يرى شيئاً، ويضع الثاني يديه على أذنيه فلا يسمع شيئاً، ويضع الثالث يديه على فمه فلا ينطق شيئاً.. ولو أحسن الحكيم لأضاف إليهم قرداً رابعاً يضع يده على رأسه ليشير إلى أنه لا يعقل شيئاً.!

* * *

قالوا إن أفلاطون كان يرى أن من شروط الحياة في جمهوريته –التي تخيل فيها المثل الأعلى للمجتمع الإنساني– أن يمنع تداول كل ما يستثير الفرح الشديد أو الحزن العميق. ولو أُعطيتُ حق المناقشة لتمنيت عليه أن يُحيل وجود هذه المثيرات شرطاً في جمهوريته ليصطفي رجاله ممن يجوزون امتحانها ثابتي الجأش لا تلتهب عواطفهم ولا تهتز أعصابهم.

* * *

نحن نذوب خجلاً إذا اعتذرنا، ونفيض مجاملة إذا أُكرمنا، ونسيل رقة إذا أحببنا، كما نلتهب غيظاً إذا مقتنا، ونهتاج حماساً إذا غضبنا، ونرتهك مفاصلنا إذا تألمنا، وليس في بلاد

الجن من يبدو عليه أثر من هذه الأعراض إلاَّ أحاله طبيب العائلة إلى المصحة ذات الاختصاص.

*** * ***

بعض الزاهدين في متع الحياة والمترفِّعين عن مسايرة الركب فيها.. يسترون إحساسهم بالعجز عندما ينتحلون القناعة مرة والترفُّع أخرى.

*** * ***

إذا صافحك وجه المتكبر بأنف وارم، وأوداج منفوخة، وسحنة كأنما مسخها الشيطان. فثق أنها ضريبة الكبرياء يدفعها ممّا قوّم الله في خلقه وعقله.

*** * ***

حاولت أن أعلِّم صغاري الصراحة، وألزمهم الصدق والحق.. ولكنني عندما تخيّلت ما سيواجههم غداً وهم يصارحون الممقوتين بمقتهم، والمكروهين بكراهتهم.. وما سيصادفهم من أصحاب الجاه في سبيل الصدق والحق وقفت في مستهل الشوط أدرس الفكرة، وأقلِّب وجوه الرأي.. وسيشب صغاري عن الطوق وأنا في مكاني من الدرس وتقليب وجوه الرأي.

*** * ***

قلت لكبير في قومه إنك لا تستنكف في سبيل تثبيت كبارتك أن تريق ماء وجهك، فأي كبارة في هذا؟ قال إن أتباعي لا يعنون بالفلسفة عنايتهم بالواقع، وأن شيئاً أسخو به من ماء وجهي سوف لا يقلل من تجلّتي في نظر أتباعي.. فما يمنعني أن أخسر في رأي الفلسفة لأربح في نظر الواقع!!

*** * ***

لا بد لصاحب الحق من قوة تدعم أركانه.. أو دبلوماسية تعده للإخراج.

*** * ***

أنت فاشل ما ساقك التهور، أو أبطأ بك التعقل.. فحاول إذا كنت عاقلاً أن لا تكون جباناً.

* * *

ما أضاع الحقوق كطيش أصحابها أو لجاجتهم.

* * *

إذا قدرت أن لكل فكرة أكثر من جانب واحد، وأنك لا ترى في الكثير الغالب إلاَّ ما يليك من جوانبها.. فقد هونت على نفسك ما تتكلفه أمام معارضك، ودللت على اتساع آفاقك.

* * *

إذا آمن مَن تحدثه على ما تقول قبل أن يستمع إلى خصمك، فلا تأمنه في شأن أمورك.

* * *

إذا لم تكن ثمرة فكن سلماً، أو مسماراً في السلم.

* * *

إذا رأيت بستانياً يزجر الطير عن ثمره، فهل تملك أن تسأله ليرحم الطير؟ أم ترى أنه فتح يوسع المجال فيما لا يسعه العقل؟؟

* * *

إذا رأيت الشرطي يسعى بسارق الخبز للحاكم، وأنت تعلم حاجة أهله إلى الطعام فهل تتبعه وتلزم نفسك الدفاع عنه؟ أم ترى أنه شوط يسلمك إلى ما لا ينتهي من أشواط؟؟

* * *

قلت لمسجون: ألا تجرّب الصدق مرة في حياتك وتخبرني هل أنت تستاهل السجن؟ قال: أرجو أن تبدأ التجربة بنفسك.. ثم بالطلقاء في جميع المدينة.. ثم تقابلني.

* * *

وقلت لمسجون: أسرقت قبل هذه المرة في حياتك؟

قال: أما كسرقات المسجونين من زملائي فلا.. وأمّا كسرقات غيرهم!! فألف نعم.

* * *

ليست الأرض المسبعة هي التي تهددها وحوش ضاربة، ولكنها التي يجاورك فيها قوم لا تعرف غيلتهم.

* * *

لا يسيء تربية أطفالنا شيء كما تسيء النصائح ترددها في صيغ منتقاة مملة.. فليتنا نتعلم كيف نهيّئ لهم السبل إلى الأخطاء الصغيرة ليأخذوا دروسهم عملياً، ويستفيدوا منها للأخطاء الكبيرة.

* * *

لا يستاء مرؤوسوك من شيء استياءهم من فرض نفسك عليهم، ولا يستهينون بشيء استهانتهم بك وأنت لا تُشعرهم بوجودك، فدع خيالك يراود مشاعرهم، وحاوله على أن لا يكون ثقيل الظل.

* * *

لا نستطيع أن نفرق بين مخالفينا وأعدائنا إلاَّ بعد أن تفهم كيف تحدِّد معاني كل من النوعين.

* * *

إذا خالفت فلا تخاصم، وإذا خاصمت فلا تعادِ، وإذا عاديت فكن شريفاً.

* * *

لئن أخالفك بوجداني.. خير من أن أطيعك بلساني.

* * *

يجب ألاَّ نبني النظم قبل أن نبني نفوسنا، وقبل أن نتعلم كيف نحترم قواعدها.

* * *

إذا استطعت أن تحدد نصيبك من أهول الخطوب، وتحرز بدقة المقدار الذي سينالك منها فقد استغنيت عن أكبر جانب من همومك.

* * *

إذا قلت لآكل الحلوى أنك ازدردتها مسمومة فقد كلّفه مزاجك آلاماً لا تطاق.. فلا تستغرب آلام العشاق وقد ظلت القصص مئات السنين تروي على مسامعهم خرافة السموم التي تشوب الحب.

* * *

لا تراودني عن محبتك. ولكن أحبني ثم انظر ماذا أفعل.

* * *

إذا رأيت فقيراً يضحك ملء رئتيه فاعلم أنك وقعت على السعيد الذي تنشده، وأنك منذ الساعة بدأت عيونك تتفتح على أبرز معاني السعادة.

* * *

أرباع الرجال يخاصمونك تقليداً، وأنصاف الرجال يخلطون بين خصامهم وأغراضهم في النفس.. أما الرجال الكاملون فأنت في حصانة من مخاصمتهم ما قام بينكم غرض[4].

* * *

[تمت بحمد الله تعالى]

(4) ـ فائدة : تعذّر عليّ معرفة عدد صفحات الكتاب الأصلي للأستاذ السباعي ولا دار النشر ولا عدد الطبعات ، وعليه فقد اصبح بهذا العدد من الصفحات ، ولعل من يقرأ كلماتنا يتفضل مشكوراً بتصويره ونشره ، والله من وراء القصد .

سرمد حاتم شكر السامرائي